

مصطفى محمود

مغامرة في الصحراء



www.Dvd4Arab.Com

المكتب العربي الحديث

الجنة درجة حرارتها ٤٨

من نافذة الطائرة كانت تبدو الرمال المترامية بلا حدود تلمع في وهج الشمس كقميص من الذهب تعلو فيه التلال كنهود مكورة خمرية في رسم سيريالى خرافى من تلك الرسوم التى يرسمها سلفادور دالى .

وكننت غارقا فى أحلامى أتتبع هذه اللوحة الأسطورية حينما تيقظت على يد رفيق فى الرحلة الأخ على المصراتى « الكاتب الليبى المعروف » .

وسمعتة يقول بصوت قلق :

- هل أحضرت فى حقبتك كل اللوازم ؟

قلت في اطمئنان :

- إن بها كل ما أحتاج إليه من هدم .

ورأيته ينفجر ضاحكاً :

- هدم ؟ .. هذه الحقيبة المنفوخة كلها هدم .. (وراح يقهقه) ..

- هل تعرف أن درجة الحرارة في غدامس خمسون درجة في الظل .. هل سمعت النشرة الجوية ؟

قلت وقد بدأت أتصيب عرقاً :

- يا لطيف !

وتذكرت درجة حرارة الأربعين في القاهرة وأنا أسير مغمى على وقلت وأنا أرعجف :

- على أي حال لا بد أني سأجد دشاً في الأوتيل .

- هناك أدشاش بعدد ما تريد ولكن المياه ملحة وتشقق الجلد :

- أعوذ بالله وهل سنشرب من هذه المياه الملحة .

- يمكنك أن تشرب مياه غازية ولو أنها مصنوعة من نفس المياه الملحة ..

على أي حال هي مياه ملحة مفيدة للصحة فيها حديد ونحاس وزئبق .

- وزئبق كمان .. هذا يعني أننا سوف نموت بالتسمم

- سوف نتعود .

- الظاهر أننا سوف نتعود على أشياء كثيرة .

- ولكنك طبعاً أحضرت معك المصل .

- أي مصل ؟ .

وهنا قفز صديق من كرسیه في انزعاج !

- المصل المضاد للعقرب والتعبان .. هل نسيته ؟

والواقع أني كنت قد نسيته تماماً ..

وقلت وأنا أحاول أن اطمئن نفسي :

- وهل هناك عقارب وتعايبين ؟ .

- وعناكب وحيات .. نحن نازلون في قلب الصحراء الأفريقية .

- ولكننا سوف نسكن في أوتيل وننام في غرفة يمكن أن نقفل بابها وشباكها علينا .

- ستنام في غرفة صحيح ولكنك لن تستطيع أن تقفل بابها من الحر إلا إذا كنت تريد أن تموت مسلوقة .

وراح يضرب كفا بكف :

- كيف تنسى احتياطاً طبيياً كهذا .. وأنا معتمد عليك باعتبارك طبيباً ؟

وارتفع أزيز الطائرة ذات المحرك الواحد وراح تترفع وتنخفض في المطبات الساخنة كأنها ريشة في مهب الرياح وغرق المصراق في سكوت قلق .

قلت وأنا أحاول أن أتمس كلمة مطمئنة :

- ولكن هناك مستشفى على أي حال أو مركز إسعاف في حالة ما إذا ..

- هناك مركز إسعاف ولكن الحقن الموجودة .. تنفذ بسرعة لأن حوادث العقارب كثيرة جداً .. وقر أيام قبل أن تصل شحنة جديدة من طرابلس بالطائرة .. وأنت تعلم أن لدغة العقرب تقتل في ظرف ساعات .
- أعوذ بالله .

قال في نبرة استسلام :

- نهايته .. الأعمار كتاب .. والحذر لا ينجي من قدر .. وإذا كان مكتوباً لنا الموت في غدامس سنموت في غدامس حتى ولو كان مركز الإسعاف كله في جيبنا .

وشعرت بأطرافي تتلجج لهذه النبرة الجنائزية .. لم يبق إلا أن نحضر معنا الأكفان .. ونقرأ الشهادتين .. ويكتب كل منا وصيته .

وراحت الطائرة تهتز مرة أخرى وتسقط كأنها تهوى إلى قاع بئر ثم ترتفع وتنزع أحشائي في كل مرة .. ومال الأخ المصراق على النافذة مشيراً بأصبعه :

- أترى هذه النقطة الخضراء ؟ هذه غدامس .. لؤلؤة الصحراء كما يسمونها .. في هذه النقطة تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة .

وأخذت الطائرة تدور مستعدة للهبوط .

وظهرت شواشي النخيل خضراء تلمع في الشمس الغارية .

وسكت المحرك الواحد وبدأت الطائرة تهبط حتى استوت على الأرض في نعومة ..

وهبطنا لنستقبلنا على الباب لفحة ساخنة .

وكان الترمومتر في المطار يشير إلى درجة ٤٥ .. ولكن الحرارة كانت محتملة بسبب الجفاف الشديد .

وكان كل شيء جافاً نظيفاً ساخناً .. الأرض والجدران والمقاعد والأبواب .. ولكن الهواء كان صافياً نقياً معقياً كأنه خارج من أوكلاف وكان يدخل الصدر فيفسله .

وشعرت بالانتعاش بالرغم من شدة الحر .

ولكني كنت مازلت أفكر في العقارب .

وحينما التقينا بمتصرف المنطقة الشيخ ونيس الدهماني .. (المتصرف في مقام المحافظ عندنا) ، كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .. وكنت أفكر في الطريقة التي أسأله بها .

وأمسك بيدي يشد عليها في حرارة .

- كيف الحال ؟ انشا الله تكون مرتاح .. كيف الحال عندكو في مصر ؟ .

ونظرت إلى الرجل المديد القامة .. كان وجهه الصريح وملاحظه الحساسة القوية والسمة النبيلة التي تكسو وجهه تحكى قصة كفاح طويلة مع الصحراء ومراس متصل مع المشقات .

وكانت عيناه تتدفقان طيبة وبساطة .

وقلت له إن الأحوال بخير في مصر ودعوته لزيارتنا ولقضاء الشتاء على ضفاف النيل .

ولكني كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .

ورأيتني أسأله فجأة عن العقارب .

وضحك الرجل ضحكة مجلجلة :

- العجارب .. العجارب ما بتعمل شئ .. الأولاد هنا يجتمعوا العجارب في طاسة ويلعبوا بها .. يبنشوا عليها في الصحرا .. فيه حد يخاف م العجارب .. انت خايف يا دكتور؟

وقلت له وأنا أكذب بشدة :

- لا .. لا .. أبدا ..

وعدت أسأل على استحياء بعد لحظة صمت :

- لكن يعني .. فيه أظن مركز إسعاف في البلد .. وفيه مصل عقرب ..

- ما في حد بياخد المصل .. وحاناخذ المصل ليه .. العجارب ما بتعمل شئ ..

واعتبرت المسألة منتهية .. وأن العقارب ما بتعمل شئ ..

وقلت للأخ على متعديا :

- شايف يا على - العجارب ما بتعمل شئ ..

وضحك على ساخرا :

- طيب ما بتعمل شئ .. ما بتعمل شئ .. مبروك عليك عجارب غدامس .

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى عديد من الموضوعات ثم خطر لي أن أسأل المتصرف في ناحية من نواحي اختصاصه فسألته عن إحصائية بالحوادث في غدامس في السنوات الأخيرة :

قال الرجل في استفهام !

- إحصائية بالحوادث .. كيف ؟

- يعني عدد الجرائم مثلا .. عدد الجنايات .

- جرائم .. كيف ؟

- جرائم السرقة .. وجرائم القتل .

وابتسم الرجل في طيبة :

- احنا ما عندنا جرائم .

وفتح دفترأ كبيرأ راح يقلب صفحاته أمامي .. صفحات عديدة بيضاء .. استفسارات من الوزارة .. وردود عليها .. مشروع مساكن شعبية .. مذكرة بإنشاء ناد للشباب .. محضر صلح بين عائلتين .. مذكرة من الأهالي بطلب بناء خزان ماء للمسجد .. ولكن لا جريمة واحدة .. لا جريمة سرقة .. ولا جريمة قتل .. الأمن مستتب بطول السنوات العشر الماضية .

وأبدت دهشة وقلت إن هذا شئ غير معقول .. ثم عدت أقول إن البوليس لابد أنه كف جدا .

وقال المتصرف :

- هذا بفضل السيد البدرى .

- قلت له إن السيد البدرى هذا رجل عظيم الشأن جدا وأبدت رغبتي في زيارته وفي الطريق إلى السيد البدرى كنت أقول لنفسي طول الوقت .. أخيراً وجدت الرجل الذي صنع المستحيل .. إنه ولاشك أعظم مأمور بوليس في الدنيا وفجأة توقف المتصرف وأشار بأصبعه إلى نافذة :

وفي حكاية أخرى أنها تفجرت تحت أقدام فرسة عقبة بن نافع .. كانت الفرس تنبش بحافرها وهي عطشى فتفجر الماء تحت أقدامها ومن هنا سميت « عين الفرس » وهي حكاية مشكوك فيها لأن العين بدأت في الغالب مع مولد الواحة ذاتها ولم تجي متأخرة مع دخول الإسلام .

وهناك حكاية ثالثة تروى أن قافلة من البدو الرحل تذكروا بعد أن أوغلوا في الصحراء أنهم نسوا قصعة طعامهم في المكان الذي تغدوا فيه أمس وعادوا أدراجهم يبحثون عنها في المكان الذي أكلوا فيه ، وبينما هم يبحثون تفجرت العين فسموها عين غدامس أى حيث الغداء بالأمس .. غدا أمس .. فأصبحت غدامس وهي فبركة لطيفة لاختلاق أصل عربي لاسم غير عربي .

لكن الحقيقة غير معروفة .

مق .. وكيف .. وفي أى عصر .. انفجر هذا ينبوع فأحال الصحراء إلى جنة .. لا أحد يعلم .

لكن كالعادة الخير أقى ومعه الشر .

فما لبثت الواحة المخصبة أن أصبحت مطعماً للأقوياء وتعاقب عليها الغزاة .. الرومان والوندال والبيزنطيون .. ومازالت بها إلى الآن آثار رومانية .. وطرز العمارة البيزنطية واضحة في طابع مبانيها .

ولقد ظلت غدامس مسيحية بسبب الوندال والبيزنطيين إلى سنة ٦٦٦ ميلادية (الموافقة ٤٢ هجرية) حينما دخلها العرب بقيادة عقبة بن نافع ليحولوها إلى الإسلام .. وبعد الحرب جاء الأتراك في القرن السادس عشر ثم إيطاليا في سنة ١٩٢٤ .. وانتهت قصة استعمار الواحة في يناير ١٩٤٣ حينما أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا ومكتنتها في الواحة في الحرب العالمية الثانية ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامي .

ولكن أغلب الظن أنه كان هناك تاريخ ما قبل التاريخ في الواحة .. فهناك آثار عصر حجري وسكاكين وخناجر من الصوان .. وقد عثر على تمثال عاجل ذى رأس بشري بالقرب من بئر عوان بجنوب غدامس ذى ملامح من النحت البدائي الذي كان موجوداً في مصر قبل التاريخ .

إنها قصة قد تطول إذن إلى عشرة آلاف سنة وربما أكثر لا أحد يدري . وكل هذا التناطح دار حول بئر انفجرت وسط الصحراء .

وكان هناك نظام قديم للسقاية من البئر يدل على مدى قيمة الماء في ذلك الوقت فقد شق الأهالي عدة أنهار تجري فيها مياه العين وعلى كل نهر بوابة يمكن أن تفتح وتغلق واستعملوا ما يشبه الساعة المائية .. سطل مثقوب تسيل منه المياه ببطء حتى يفرغ على مدى ساعة زمن .. وعند بدء الساعة يفتح أحد الأنهار لتستق منه إحدى القبائل وفي نهاية الساعة تغلق البوابة فتنتهي السقاية .. ويحيى الدور على القبيلة الثانية التي تستق من النهر الثاني وهكذا يمر الدور على جميع القبائل .. أول نظام لعداد مائي في العالم .

ومازالت هناك ثلاثة أنهار جارية تخرج من البحيرة الكبيرة التي تصب فيها العين .. ومازالت تحمل الأسماء البربرية القديمة .. تاسكو .. وتارت .. وتنجسين .

وقد بنى الأهالي مدينتهم فوق هذه الأنهار فأصبحت أول مدينة تجرى من تحتها الأنهار كأنها الجنة ..

أهلها لا يعرفون السرقة ولا القتل ..

والبوليس يجلس فيها بلا وظيفة أمام دفاتر خالية ..

وتحكى روح سيدى البدري ..

وتجري من تحتها الأنهار ..

ولكنها جنة عجيبة درجة حرارتها ٤٨ .

الكلمة بالليبي العامي	الكلمة بالعربي
يذرز	يثرثر
يعفلج	ينرفز
باهي	كويس
الله غالب	يفتح الله
مربوحة	راجحة انشالله
لا سو	لا بأس
يشبح	يشوف
يرجب	يمتدح
عنده ناموس	عنده همه
هجاله	أرملة أو مطلق
لوطه	الأرض
طار السو	خد الشر وراح
مصامة الكرشة	(عند انكسار شيء)
يدهور	آخر العنقود
يكحل	يتفسح
الانقر	يبصبص
الدلاع	قرة العين
يدوي	البطيخ
الكورفي	يتكلم
يجنتر	السخرة
	يفشر

الظلام
حالك
من
عز
النهار

احترقت طائرة المارشال بالبو وهي الآن رماد تذروه الرياح من سنين .
ماتت القبلات .

والعشبات الفاتنات أصبحن الآن عجائز بلا أسنان .

وهاهو السرير الشهير في فندق غدامس يشهد ليلة جديدة مختلفة .

فعندما يأتي الظلام سوف آوى إلى السرير وأنا احتضن كتاباً

إنه عشق من نوع جديد .

ولعله العشق الوحيد الذى تدوم فيه القبلات ويشمر العناق .

وشعرت بأنى يجب أن أعتذر للبانيو فلن يكون له دور كبير في غراميات
الليلة .

وكان بانيو فاخرا مبطنا بالقيشاني الأسود والفس في ينزل ساخنا ملتهبا
بلا سخان . وكل حنفية هنا تنزل منها المياه ساخنة . فرمال الواحة الملتهبة

تعمل كموقد طبيعي طول الليل يرفع حرارة جميع الأشياء .

ورحت أنقب تحت السرير وراء الأبواب وفي الأركان عن العقارب
والنعاين والسحالي والعناكب والأفاعى .

وسمعت قرعا على النافذة وأطل رأس الأخ المصراق :

- أنت مستعد ؟

- ليه ؟

- حانطلع جبل قصر الغول .

كان خادم فندق غدامس يدور في غرفتي في سعادة ويشير بأصبعه مبتسما إلى
السرير الذى أنام عليه .

- هذا السرير نام عليه المارشال بالبو منذ أكثر من ثلاثين سنة .. ومنذ
سنوات قليلة كانت تحتل هذه الغرفة صوفيا لورين وثامت على نفس السرير
أربعين ليلة .. كانت تصور هنا فيلم « الخيمة السوداء » وفي هذا البانيو كانت
تستحم كل مساء .

إنها غرفة محظوظة .. في أيام الاستعمار الإيطالى كان المارشال بالبو يجلب
العشبات الفاتنات من روما بالطائرة وكان يملأ هذه الغرفة بالضحكات ..
وكانت قرعات الكنوس ترن في سكون الواحة .. هذا سرير له ذكريات ..

ورحت أترغ في سرير المارشال بالبو وصوفيا لورين .

انتهت الضحكات .

وأعجبني الاسم .

كانت له رنة في الأذن توقظ الرغبة في المغامرة .

وقلت له إني آت فوراً .

جبل قصر الغول !

وفي دقائق كنا نركب عربة لاندروفر تترنح بنا خارجة من الواحة إلى عرض الصحراء .

وكان هذا أول لقاء لي مع الصحراء .. ذلك البساط من الرمل بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر وبلا قطرة ماء .. وذلك الهواء الجاف الساخن كأنه منديل كبير من الشاش يمسح العرق ويجفف اللعاب .. وتلك الأرض الهشة التي انفطرت إلى ركام من الدقيق الأصفر وتلال وآكام وجبال ووديان تصفر فيها الرياح فتصبح السماء بلون الأرض ولا ترى يديك على بعد متر من عينيك وكأنك غرقت في مستحلب أصفر وتحولت إلى ذرة تراب في عالم من التراب يدخل من فك وأنفك وأذنيك وعينيك وجلدك ويلذعك بلايين النبال الساخنة .

وكانت اللاندروفر تتلوى صاعدة هابطة ساقطة .

وأمعاني تتخضخض .. ورأسي يخبط في السقف .. وبعضى يخبط في بعض .. والسائق ماهر جداً .. ومتخصص في الطريق ومعه دليل .. ونحن جميعاً نشكر الله .. فلولا ذلك لناهت السيارة لأى خطأ طفيف في الاتجاه ودخلت في واحدة من تلك المتاهات التي يسمونها الرمال الناعمة حيث تغوص كما يغوص الحجر في الماء .

ومرت ساعات دون أن نقطع مسافة تذكر .

وظهرت الحدود الجزائرية على البعد .

ودرنا حول الحدود ثم بدأت السيارة تسرع على سهل منبسط لتلق بنا في النهاية عند أقدام جبل صغير أشهب ملئاً بالتنوءات الصخرية .. قال السائق وهو يتوقف أمامه :

- هذا هو جبل قصر الغول .. هنا حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار .

وتزلنا نتسابق جرياً إلى القمة وأشهد أن الأخ على المصراقي كان أسرنا وصولاً ، وكان أول من صاح وهو يطل علينا من فوق :

- لقد وجدت البئر .

أما أنا فقد توقفت عند منتصف الجبل أمام كهف مظلم ..

وجلس على صخرة كبيرة ألنقط أنفاسي . وقال لي الضابط المرافق إن هذا الكهف نقيه جنود عقبة بن نافع في الجبل . وظلوا ينقبون في الجبل حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر وربطوا هناك يقطعون كل حبل يدلى به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشاً فلم يجدوا بداً من النزول والالتحام مع جيش عقبة وانتهت المذبحة بانتصار العرب .. وأنت تستطيع أن ترى من هنا قبور الشهداء من الصحابة .. وأشار إلى عدد من القبور منصوبة بطريقة إسلامية بسيطة .

وحيناً بدأنا نسير نحو القبور .. كنت أفكر في الطريق الطويل الذي قطعه هؤلاء المحاربون من مكة إلى قلب الصحراء الليبية يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة من التمر .
أى قوة رهيبة .

الكلمة بالعربي	الكلمة بالغدامسي
نجمة	ايرى
دراهم	دراهم
الطفل	امطفال
الخصومة	اكتاس
يبكى	يطرف
الفراشة	فرططوا
الخشب	ابرج
النار	اوقا
الماء	أمان
النساي	نساي
القهوة	قهوة
المرأة	تلنا
الرجل	واجيد
١	يون
٢	سن
٣	كاراخى
٤	اكظ
٥	سمس
٦	سظ
٧	سا
٨	نام
٩	اتصو
١٠	ماراو
١٠٠	مائة
ألف	الف
مليون	مليون

وأى طاقة أطلقتها كلمات القرآن فى هؤلاء الأجلاف الجاهلين فجعلت منهم
فدائنين ورسول فكر وعلم وحضارة يسعون لمصارعة الموت وهم يبتسمون .

وحينما بدأت أقرأ الفاتحة لاحظت أنى فقدت صوتى من العطش وأن حلقى قد
جف تماما وتحول الى أنبوبة من الحطب لا تخرج سوى الفحيح .

إن ترف المدينة واللاتندروفر وخبراء الطريق لم تستطع أن تعطينى قوة .
إن الكهرباء والذرة والقطار والتليفزيون سوف تزيدنا رخاوة . .
إننا نفقد ولا نكسب .

إن إنسان العصر ينحرف تدريجياً ويخسر ذلك الشيء الذى كان عند هؤلاء
المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة وهبوا كالأعاصير وغيروا وجه الدنيا .
نور القلب قبل نور الكهرباء هو ما يجب أن نبحث عنه .
نبع روح . . فتبع بترول لا يطفى .

لقد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض لا تملك سوى البعير والخيل
واقترح على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيره كلمة حق .

واليوم عندنا الحديد والصلب والكهرباء والبخار والذرة ونفوس كل يوم فى
الحقد والكراهية الى الركبتين ونزداد رخاوة وضعفا .

العلم المادى أضاء لنا البيت ولكنه لم يضى لنا قلوبنا .

العلم قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الفواصات والصواريخ والقنابل
الذرية .

وركعت ألثم الرمال حيث تنام قلوب امتلأت عزما ومحبة وشجاعة .

وحينما كنا نعود إلى غدامس كانت أكثر من عشرين مثذنة تؤذن باسم الله .
وواحة غدامس تقع في قلب الصحراء الليبية على خط عرض ٣٠ شمالاً
وارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب حدود تونس والجزائر . وتعدادها
السكاني وصل في عام ١٨٤٥ إلى ثلاثة آلاف بينهم خمسمائة عبد . . وفي سنة
١٩٤٠ وصل إلى تسعة آلاف وخمسمائة معظمهم من البربر والطوارق . وهو
تعداد كبير نسبياً . هي بلد آحر قريب مل « فلفلت » يبلغ عدد السكان
أربعين نفرًا فقط منهم سبعة رجال والباقي نساء وأطفال . . وهذا كل شعب
فلفلت .

والواحة محاطة بسور منخفض يبلغ محيطه ٣ أميال . . فيه عدة أبواب كان
يقف عليها الحرس شاكي السلاح .

واشتهرت غدامس بطول التاريخ أنها أكبر محطة قوافل . . وكان يمر منها في
العام أكثر من ثلاثين ألفاً من الإبل .

ومن أهم خطوط القوافل التي تخرج من غدامس ذلك الخط الذي يبدأ من
غدامس ثم يتجه إلى غات ثم تبوكتو .

وتجارة العاج وريش النعام وتراب الذهب والتساي والعطور التونسية
والثياب المطرزة ومناديل الحرير كانت تخرج وتدخل ليبيا عبر غدامس .

وقد عرف الكثير من التجار السبيل إلى الثراء عن طريق تلك القوافل .

كتب احدهم يقول : « قطعت ذلك الطريق سبع مرات كنت في أولها خادماً
وفي آخر مرة كان عندي سبعة من الخدم » .

وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لعالم قديم لا يعرف الطائرة ولا القطار
ولا السيارة ولم تكن له شرايين يعيش بها سوى قوافل الصحارى .

ولكن مثل تلك الرحلات لم تكن نزهة سهلة . فقد كان الموت والهلاك
يترصد المسافرين في كل خطوة من الوحوش وقطاع الطرق وهلاك الإبل والموت
عطشا وضلال الطريق وطول السفر الذي كان يمتد إلى شهور في الحر اللافتح
وسواق الرياح . . ولهذا كان طبيعياً أن يرتفع ثمن البضاعة إلى عشرة أضعافها
وأن يصبح الريح سخياً مجزياً . . مثلاً كانت العبءة الحمريرية يبلغ ثمنها عشرة
خراف وكان رأس الإبل الواحد يباع بمائة وعشرين خروفاً .

ومازال تجار غدامس إلى الآن يحتفظون بالقباب عائلاتهم القديمة . . أولاد
نهاب وأولاد بكر . . وأولاد التني .

والجد الأكبر لعائلة التني الذي بلغ من الثراء وتكدس الذهب إلى درجة
الحرافة . كان يقال إن الجن هو الذي يجلب له الذهب وانه بدأ رأسماله بكنز
من العملات الذهبية دله عليه الجن .

والأرض خصبة في غدامس تنبت كل شيء حتى القطن والزيتون والرمان
والشمام والبطيخ والطماطم والخضر ولكنها مهملة لا تنبت فيها سوى النخيل .

وأعجب ما في غدامس مبانيها . . البيوت المتلاصقة ذوات التواءات المثلثة
(لطرذ الشياطين والأرواح الشريرة) والأبواب المنقوشة بالطلاسم والتعاويذ
وخاتم سليمان المطبوع على رقاع من الجلد ومعلق في المداخل .

وحجج البيوت لصق بعضها ولها سطح واحد ، والنساء يعشقن على الأسطح
ولا يبرحنها .

مجمع نساء وسوق لنساء . . وحيه النساء كلها على الأسطح

ولا يرى على الأرض في الشوارع إلا الرجال .

والشوارع جميعها مسقوفة وضيقة ومظلمة حالكة الظلام في عز النهار مثل
ممرات منجم تفوح منها روائح العرق والتراب .. ولا تستطيع أن تمشي فيها
بدون بطارية ..

وفي المدينة سوق للنخاسة كان يباع فيها الرقيق في الأيام الحالية .

وفيهما أكثر من عشرين مسجداً .. وفي كل مسجد مقصورة خاصة
بالنساء ..

وجميع الغدامسة مسلمون متمسكون بديانتهم وعندما ينادى المؤذن للصلاة
تخلو جميع الشوارع وتخلو جميع المتاجر من الناس .. الكل يذهب إلى المسجد .
وهم يعالجون المجنون بتلاوة القرآن على رأسه .

ولا أحد يسرق ولا أحد يقتل .. والغدامسى إنسان وديع جدا ومسالماً جداً .

ومن تقاليد الزواج عندهم أن يبق العريس والعروس في « الحجة » وهي
دروة أو خيمة صغيرة - متر في متر - داخل البيت لا يبرحانها لمدة سبعة أيام .

والأكلة الغدامسية الشعبية هي الملوخية والبازين

والملوخية تطهى بطريقة خاصة ، فهي تخفف ثم تطحن حتى تصبح دقيقتاً
غاية في النعومة ثم تمزج بالزيت وتضاف إلى الماء وتغلى مدة طويلة ثم يضاف
إليها اللعوم والبهارات وقليل من السمسم .. وطبق الملوخية يقدم عادة مغطى
بالزيت ..

أما البازين (وهو أيضاً أكلة طرابلسية شائعة) فهو أشبه بالعصيدة
المصنوعة من دقيق الشعير والماء المغلى وبعد التوضيح يضاف إليها الملح ثم تكور

على شكل كرة وتخوف ويوضع في قلبها الخضار واللحم .

وفي غدامس قلعة بنيت في عهد الاحتلال الإيطالي وقعة أخرى قديمة بنيت
في عهد لاحتلال التركي

ومرل لغدامسه يذكرون لواء منسوب ليدى حبيب فيه كوكبه من جلود
يوسف القرمالى (الحاكم التركي) إلى الواحة وأخذت بالقصب والتهديد أكثر
من ألف وزنة من الذهب أو كانت تجمع النساء والأطفال رهائن وتجلد كل من
يرفض الدفع .

وهم يذكرون أيضاً أيام الاستعمار الإيطالي الأسود سنة ١٩٤٠ حينما كان
الإيطاليون يجمعون الشبان ويجندونهم بالسخرة لحرب الفرنسيين في الجزائر ..
وكانوا يعتقلون كل من يرفض ويودعونه السجن .. ويفرضون الضرائب على
كل تاجر وعلى كل رأس من الإبل .

وهم يذكرون ذلك اليوم من شهر يناير ١٩٤٣ حينما هاجمت قاذفات القنابل
الفرنسية غدامس لضرب الثكنات الإيطالية فيها وأشعلت الحرائق وقتلت
المئات من الغدامسيين تحت الردم .

ولكنهم يواجهون هذه الكوارث بروح قدرية تؤمن بأن الموت كتاب وتسلم
كل شيء لله .

والقبائل التي تسكن غدامس بعضها بربر وبعضها طوارق وبعضها عرب .
والطوارق يسكنون خارج غدامس في قرية « الظاهرة » .

أما البربر فيسكنون المدينة وهم مزيج من عرق بربرى وعربى وينحدرون
من قبيلتين : قبيلة وليد .. وقبيلة زيد .

ومن قبيلة وليد خرجت ثلاث قبائل : ضرار ، وناسكو ، ومازيغ .

ومن زيد خرجت أربع قبائل : جرسان ، وفرقرة ، وتنجسين ، وأولاد باليل .
والقبائل السبع أطلقت أسماءها على شوارع المدينة .. شارع ضرار ..
وشارع ناسكو .. وشارع مازيغ .. وشارع جرسان .. وشارع فرقرة ..
وشارع تنجسين .. وشارع باليل .

وشارع باليل هو آخر شارع دار فيه القتال بين المسلمين وسكان الواحة
وهو القتال الذي استشهد فيه السيد البدرى .

والمدينة ذات البيوت المتلاصقة والسطح الواحد والشوارع المسقوفة لها
أيضاً عدة أبواب .. على كل باب تقرأ عبارة عربية منحوتة وتقرأ تاريخ بناء
ذلك الباب .. وكل باب له اسم .

على باب « أم سيلن » تقرأ .

يا من دخل وخرج بعد الضيق تجد الفرج .

وتدخل من باب « أم سيلن » إلى شارع مظلم يتفرع بك إلى تلك القنوات
الغربية كأنها ممرات وتفتح بك الطرقات هنا وهناك على ميدان أو ساحة يجتمع
فيها أهل البلد في الحفلات والمهرجانات أو ملعب يلعب فيه الأطفال ..

وحفلات الأعراس عندهم يعزف فيها زمار وعدد من النساء يضرين الطبل
وهن محجبات تماماً ويرقص الرجال ولا ترقص النساء البربريات .

واللغة الغدامسية هي مزيج من اللغة العربية واللغة البربرية والعامية الليبية
واللغة الطارجية (لغة الطوارق) .

وتعدد الزوجات موجود بين الغدامسة ولكنه قليل .

وشرط البكارة في الزواج ضرورى .

وفي أحد شوارع البلدة المسقوفة تجد عدداً من الحمامات مبنية فوق أحد
أنهار عين الفرس (وجميع الأنهار التي تخرج من عين الفرس تجري تحت مباني
البلدة .. فالبلدة مقامة فوق الأنهار) ، وفي كل حمام شماعة توضع عليها ثيابك
فمن أن تنزل إلى البانيو ، والبانيو هو النهر نفسه الذي تجري فيه مياه العين
دافئة صيفاً وشتاء .

ومارالت لأصنام التي كان يعيدها أهل غدامس قائمة خارج البلدة قرب
فريه انطهره

الرجل
معلم
و
المرأة
سافرة

وطوارق غدامس أكثر تحضراً وقدنا من إخوانهم الذين يعيشون على البداوة
ولارحال والتنقل وراء المراعى في صحارى الجزائر والسودان .

وهم يتبعون قبيلة كبرى اسمها فوغاس والاسم مشتق من فغسى باللغة
التارجية « أى الطوارقية » وهو اسم حيوان مفترس . . وهذا يدل على العقيدة
الطوطمية « تقديس الحيوانات واعتبارها أجداداً المنحدر منها الجنس » .

وقد انحدر من فوغاس ثلاث قبائل : كل تيسى هاوت . . وكل أوراغن . .
وكل تسيللى .

وكلمة « كل » معناها ابن - أى ابن تيسى هاوت وابن أوراغن . . وابن
تسيللى . . وهى القبائل الثلاث التى تؤلف الطوارق السقاة الذين يستقرون في
قرية لظاهرة خارج غدامس

والطوارق القدمسة مسلمون مالكية متمسكون بديهم .

وقد غير الإسلام طباعهم وعاداتهم .

ودخل الترانزيستور ودخلت البطارية والدراجة لتغيرهم أكثر .

وقواعد الزواج يحكمها التشريع الإسلامى ، فلا زواج بين أبناء وبنات
البطن الواحدة ولا بين الأب وابنته ولا بين الأم وأبنها ولا بين الأخوات في
الرضاع وبالمثل تكون المسافحة بين أمثال هؤلاء من المحرمات أيضاً .

وفى كل قبيلة فقيه يعلمها القرآن ويخرج معها في ارتحالها .

وامرأة عجوز سنها ٨٢ سنة اسمها « مبروكة ايدا ماهولزا » سمعناها تقرأ
القرآن في مصحف مخطوط . . وهى تحفظ . جميع السور عن ظهر قلب .

وفى الوليمة الكبيرة التى أقامها لنا الطوارق جلسنا على سجاجيد وحشايا

لاشئ يثير في غدامس مثل هؤلاء الفرسان العرب الملتحين . يركبون المهارى
(نوع من الإبل السريعة) ويسرون في قوافل مهيبة لا يظهر من الواحد
إلا عيناؤه تبرقان في ضوء الشمس ، أما الوجه والرأس فيخفيها لثام أبيض
وأحياناً ملون ، والجسم يلتف في عباءة فضفاضة بيضاء أو ملونة . . وإذا
صادفت أحدهما يمشى في الصحراء خيل إليك أنه أمير أو ملك يمشى في قصر ،
فهو دائماً يمشى رافع الرأس في اعتداده وخطو ثابت واثق كأنه قيصر يتفقد
مملكته ، وهو دائماً أنيق رشيق معطر .

هؤلاء الفرسان هم الطوارق .

والطوارق هم قبائل متعددة تملأ الصحارى الشاسعة في الجزائر وليبيا
والسودان والنيجير .

وثيرة وقدم إلى كل منا فوطه نظيفة مبخرة بالمسك والعنبر وبدأت الضيافة
بالبن والتمر « وهم يشربون لبناً حامضاً » ثم الخروف المشوى بالكسكسى ثم
سدى العرب

وقبل العشاء قدم شباب القبيلة عرضاً لألعاب الفروسية على ظهور المهارى
ورقصت المهارى على الطبول.

وبعد العشاء بدأ السمر الذى طال إلى نصف الليل.

واللغة التى يتكلم بها الطوارق « التارجية » من أصل بربرى ويقال إنها
مشتقة من اللغات السامية القديمة وفى رأى ثالث إنها إنتاج محلى وإن لها
أصالتها الخاصة فهى وسائل التعبير الأولية التى ابتكرها الأجناس البدائية التى
سكنت السهل الأفريق من ألوف لسن

واللغة التارجية ليس فيها حرف (د) وحرف (ض) وإنما حرف واحد
يدل على الاثنين وأيضاً لا يوجد فيها حرف (س) وحرف (ص) ولا حرف
(ق) وحرف (ك) وإنما حرف واحد أقرب إلى حرف الصاد والكاف.

ولغة الكتابة واسمها « تيفياخ » مؤلفة من ٢٤ حرفاً، وهى أشبه بالعلامات
الهندسية « دوائر ومربعات ونقط وشرط ومثلثات ». وهى تنقش على الحجارة
والجلود والخشب وتستعمل فى مناسبات قليلة لتسجيل الملكية أو عقود الزواج
وتكتب من اليمين إلى اليسار أو من فوق إلى تحت، ويتخاطب العشاق بإشارات
من أصابعهم دون نطق بطريقة سرية للتفاهم على المواعيد.

وأصل هذه اللغة غير معروف ويقال إنها مثل لغة الكلام من أصل سامى.

واللغة العربية معروفة قراءة وكتابة بالنسبة للطوارق الغدامسة.

ولطوارق أشعر وأغان ومنشورات باللغة الدارجية تحدث عن الحرب

وغب والصحراء والجبال وسكون الليل وجلسة العشاق متشابكى الأيدي
حول النار الراقصة وذلك الإحساس الذى يستولى على الحبيين فيشعرون
بحل الطاغى للحياة والقمر والنجوم ورقصة العصفور « مولا مولا » أمام
حبه وتنوء القلب حيناً بفضى بأعقق اللواعج والعواطف.

وهم يقنون أشعارهم على الربابة « يمزاد ».

والمعاجز تحكى الحكايات والأساطير للأطفال قبل النوم .. وأشهر
الأساطير تلك التى تحكى أن الصحارى فى الماضى البعيد كان يسكنها ناس
سحون كالكلاب ولا يعرفون الله وأن ملكهم عكار كان عاتياً جباراً وأنه مات
مفتولاً وبنيت له مقبرة هائلة من الحجارة.

وموسيقى الطوارق هى معروفة على نمرود ويطبول ولسنه لموسيقى حمسى
من لموسيقى السودانية.

ولا يعزف الربابة « يمزاد » إلا النساء .. وإجادة اليمزاد علامة على حسن
ربية البنت ونبل عنصرها .. وبعض الفتيات عازفات قديرات ذوات شهرة
من قبيلتهن يقطع لهن الرجال أميالا من الصحارى ليستمعوا إليهن.

وعادة اللثام بالنسبة للرجل والسفور بالنسبة للمرأة عادة غريبة من الصعب تفسيرها .

والنظرية القائلة بأن اللثام يلبس كوقاية من العواصف الرملية لا تفسر لنا لماذا لا تلبسه المرأة أيضا . . والنظرية التي تقول إن الرجل يلبس اللثام ليتخفى عن عدوه نظرية غير صحيحة لأن الرجال يتعارفون على بعضهم بالرغم من اللثام .

وأغلب الظن أنه نوع قديم من التحريم الوثني الذي كان يعتبر فم الرجل عورة ' لأنه مدخل الهواء والماء والطعام ، ويخرج التنفس أو هو باب الروح الذي يمكن أن يدخل منه الجن والأرواح الطيبة والشريرة ' ، ولهذا وجب أن يحجب الرجل فلا يكشفه أبدا .

والمرأة تقول في امتداح زوجها أنها عاشت معه عشرين سنة دون أن ترى فيه . .

وحينا يحدث أن يقع اللثام فجأة فإن الرجل يسارع بيده ليحجب فمه وكأنه عورة فعلا ويسارع بيده الأخرى ليلتقط اللثام من على الأرض .

ومنتهى سوء الأدب أن يكشف الرجل فمه أمام المرأة حتى ولو كانت زوجته .

ولا يشئ بدون لثام غير الأطفال ، فإذا أدركوا سن البلوغ ألبسهم أبائهم اللثام في احتفال يقام خصيصا لذلك ، ومن تلك اللحظة يسمح لهم بحضور مجالس السمر وينظر لهم على أنهم أصبحوا رجالا .

إن اللثام علامة كمال الرجولة .

الكلمة بالعربي	الكلمة بالتارجي	الكلمة بالعربي	الكلمة بالتارجي
عين	طيط	الكراهية	كوسن
وردة	طيط	الغضب	أبليس
الحليب	أخ	الفرح	ترامان
الدم	اهني	الحرب	أن مفغي
قر	تينى	السلام	مانا وين
المحبة	ترا	أهلا	ايسلا
الذكر	اى	الحياة	تامت دورت
الأنثى	تونتى	الموت	تامت تانت
الجميل	إيماناس	الله	ايملى
الحصان	أيس	الريح	أضو
شجرة	أشك	جبل	اضرار
صحراء	تينيرى	مهرجان	أراواضى
المطر	أنجى	قبيلة	تاوسنت
الطفل	اباراه	خبز	تاكايا
النار	تيمسى	ماء	أمان
الحطاب	ايضا غيرن	سما	أجنا
الرجل	أكس	الخبر	أين
المرأة	طمط		

وحق أثناء الأكل على الرجل ألا يكشف عن فـه .. وعليه أن يأكل من تحت اللثام ومن يكشف عن فـه أثناء الأكل فهو يدل على وضاعة تربيته وسوء منبته تماما كمن يأكل بأظافره عندنا .

أما لماذا لاتلبس المرأة اللثام فهو أمر غير مفهوم .

ولماذا اعتبرت التقاليد فـم الرجل عورة ولم تعتبر فـم المرأة عورة ؟ .

هذه كلها أسئلة بلا جواب .

والطوارق لا يختنون البنات .. والختان عملية مقصورة على الذكور .

وختان الأطفال يتم في اليوم السابع .

كما أن تسمية الأطفال تتم أيضاً في اليوم السابع .. يسميهم أعمامهم وليس أبائهم .

والزواج يبدأ بالخطبة والأب هو الذي يخاطب لابنه .

لكن البنت في الطوارق تختار في حرية .. وتوافق أو لا توافق .. والمهر عادة سبعة رؤوس من الإبل أو مايقابلها من الخراف ويتم حفل العرس بالموسيقى والغناء ' أغنية شجرة الزيتون ' وفي نظر الدكتور فرمان أن هذا دليل على بقايا وثنية لأن شجرة الزيتون من الأشجار التي كانت تعبد أيام الوثنية الأولى .

وتبدأ العلاقة الزوجية وتستمر سنة وأحياناً خمس سنوات ، تذهب الزوجة كل ليلة إلى الزوج لتبيت معه ثم تعود لأهلها في الصباح ويسمون هذه الفترة فترة التأهيل .

وبعد هذه الفترة تعد خيمة جديدة بمستلزماتها يوضع فيها جهاز العروس

وتدخل امرأة عجوز لتقرأ تعاويذ خاصة لطرد الجن .. وبعد ذلك تبدأ الحياة المشتركة .

والطلاق يحدث بسبب العقم وسوء المعاملة وأمراض مثل الجذام والجنون . وعلى المرأة بعد الطلاق أن تقضى شهور العدة ' كما في الإسلام ' قبل أن يجوز لها الزواج من جديد .

والطوارق الغدامية اشتراكيون بالفطرة . فإذا ذبح أحدهم ذبيحة فهو يطعم كل الجيران ويقسم الذبيحة بالتساوي على القبيلة .. ولا أحد يأكل اللحم وحده . وكذلك إذا تقدم السن بأحدهم فإن كل القبيلة تشترك في سداد حاجاته وكل واحد يعطيه نصيباً من السكر والشاي واللحم والأقشة .

ولا يوجد طوارق يشحذ .

والسارق يعاقب بالطرده والنبد والمقاطعة الكاملة من القبيلة .

والقاتل يحكم عليه بالقتل .. والحكم يصدره الرئيس الأعلى للقبائل ' امينو كال ' .

والطوارق معمرين . والواحد منهم يبلغ الثمانين وهو يحتفظ بجميع لياقاته وفي صحة جيدة .. والسـر في ذلك هو حياة الهواء الطلق والطعام القليل وبساطة المعيشة وخلوها من القلق والهموم .

والطوارق لا يأكل إلا وجبة واحدة وباقي اليوم يشرب اللبن ، وأثناء الترحال الطويل يكتفى بشرب اللبن وأكل التمر وهو يشرب من اللبن كميات كبيرة ، وأحياناً لتراً كاملاً في المرة الواحدة ، وهو دائماً لبن حامض .. وهو لا يعرف الخمر ولا المخدرات .. ويعضغ الدخان ولا يدخنه

وهم يحكون عن أوفانيت الذي كان مغرما بتدخين البببه وعاش ١١٥ سنة .

والطوارق لا يرهب عندما يحضره الموت ينطق بالشهادتين إذا كان مسلما وإلا فهو يرفع أصبعه السبابة ويطلق آخر تنهيدة .

ويعقب الموت الغسل ثم التكفين والدفن على الطريقة الإسلامية حيث يمد متوجها إلى القبلة ، ثم تفك خيمة الميت ويصبح مكانها حراما لا ينصب أحد خيمته فيه .

وترفع الراية البيضاء على الخيمة حينما يموت أحد فيها .

والخداد والملابس السوداء والطم والتدب والحويل أشياء غير معروفة بين الطوارق ، والكلمة التي تقال عند الموت لأهل الميت : علينا أن نفرح ، فقد ذهب من نحب إلى الجنة .

والزوج يلبث ثلاثة أيام بعد وفاة زوجته في خلوة كاملة داخل خيمته لا يبرحها . .

والزوجة تظل أربعة أشهر وعشرة أيام في اعتكاف كامل ، ثم بعد هذا تستطيع معاودة الحياة الاجتماعية العادية وتزوج إذا أرادت .

والزوجة لها مقام عال ولها احترام في بيت الزوجية ، وهي تشارك زوجها جميع المسؤوليات والأعباء ، ورأيها يؤخذ في كل الشئون . . وتعدد الزوجات غير معروف بين الطوارق مع أن الإسلام يبيحه . . ولا تفسير لهذه الظاهرة سوى أن الطوارق قد ورثوا مع ما ورثوه من تقاليد " تقديس الأم " استمرارا للقوانين القديمة التي كانت تضع الأم على رأس القبيلة وتنسب الابن لأمه

قاموس تارجى عربى

الكلمة لعربيه	الكلمة التارجية
البص	تيسادالن
الحمر	تاجلا - تاكاي
الساى	شاهى
القمح	ايرد
الدره	اينالى
نمر	تسى
البصل	ايفيليلى
الشطة	الحمر
النعير	تيمظن
اللبن	آخ
اللحم	ايسان
الدخان	تاب
ملعقة	تاسوكالت
إباء الطيح	يغمر
الخلو	ياظيه
المر	سم

لا لأبيه وتعطى المرأة الحق في أن تتزوج أكثر من زوج ، وأن تكون الحاكمة على أزواجها الرجال والحاكمة على القبيلة كلها .

وفي كتاب تاريخ السودان نجد بالفعل المؤلف يروى لنا أن في سنة ١٤٧٥ كانت تقطن السودان قبيلة من البربر تحكها امرأة اسمها بيجوم كاي .

ومعنى ذلك أن نظام سيادة الأم كان معروفا بالنسبة للبربر القدماء .

وبالرغم من انقراض هذا النظام إلا أنه مازال يحلف تلك الآثار من تقديس المرأة في قبيلة الطوارق . . فالمرأة تعمل وتعزف الموسيقى وترأس الحفلات ومختار حبيبها ومختار زوجها . . وترفض تعدد الزوجات بالرغم من أن الإسلام يبيح هذا التعدد شرعا .

ومن أسماء الرجال . . أوخا . اخديدي . أخيا . . أخنوخا .

وأخيا التاريخي كان فارسا شهيرا حارب الأتراك في غات وقتل حاميا وقاد ثورة مطالبها بالامتيازات السياسية .

وأخنوخا التاريخي عاصر نابليون . . وأرسل له نابليون الرسل ليعقد اتفاقية بين فرنسا والطوارق فرفض أخنوخا . .

ومن أسماء الفتيات . فتات . ومالا .

القبيلات
بحك
الانف
بالانف

وكل تلك القبائل كانت من أجناس ما قبل التاريخ ، من ذلك الجنس الذى ظهر فى الشمال الأفريقى والذى يعرف باسم « كروما جنون » .

ويقال إن أصل الطوارق من البربر وأصل البربر من جنس الكروما جنون .

وفى أحد الآراء أن الفراعنة أنفسهم من البربر . ويساق هذا رأى كتنفسير للطفرة الحضارية التى حدثت فى وادى النيل وكيف كانت بتأثير هجرات من الكروما جنون والبربر .

ومعنى هذه النظرية أننا سنلتق مع الطوارق فى سابع جد .

وفى رأى آخر أن أصل الفراعنة أسبوى .

والكلام كثير فى أصل الفراعنة والحقيقة غير معروفة . .

لكن بما لاشك فيه أن الصلات بين مصر وليبيا عن طريق التجارة والهجرة والحروب لم تنقطع طوال التاريخ القديم .

أما الطوارق البيضى والشرق ذوو العيون الزرقاء فهم من دماء أوربية جاءت إلى الشمال الأفريقى عن طريق البحر فى الزمن القديم . . وفى قول آخر أنهم من أصل أفريقى حقيقي وكريقى .

وطوارق الجنوب السود ذوو التقاطيع الزنجية من أصل سودانى جنوبى .

والمؤرخون العرب لهم نظرية خاصة فى أصل البربر . . يقول ابن عبد الحكم : هم من فلسطين هربوا بعد مقتل ملكهم جالوت بيد النبي داود وهاجروا إلى ليبيا .

وتحدث صاحب المسالك عن هجرة قبائل الهوارة والزناة والداريسة

يدو أن قلب الصحراء الليبية كان مسرحاً لإنسان ما قبل التاريخ . . تدل على ذلك الثروة الهائلة من الآثار والمخلفات من العصر الحجري . . ما تكاد تحفر فى الرمل حتى تعثر على تلك الآلات العجيبة . . سكاكين وبلط وحراب وسهام ومناشير ومبارد حجرية وابر من العظام . .

وتلك التلال من الحصى المرصوص عند أقدام الجبال هى ما تبقى من شواهد المدافن القديمة . ما تكاد تحفر تحتها حتى تجد مئات من الهياكل العظمية والأدمية هؤلاء الذين رقدوا رقاد الموت منذ عشرة آلاف سنة .

وعلى جدران الكهوف ترك الفنان الأول رسومه الأولى وأولى مغامراته فى عالم الفن . . صورا محفورة بأناقة مذهلة وملونة للفسزال والزراف والنور وللرقص والصيد والزواج والحب رسمها قبل أن يعرف كيف يكتب وكيف يتكلم .

والخيلة وانتشارهم بين طرابلس والدواخل الصحراوية .

ويقول ابن خلدون إن البربر هم أولاد كنعان ونوح .

أما الرأي الأوروبي الذي يقول بأن الطوارق فينيقيون هربوا من وجه الإسكندر المقدوني فهو رأى خاطئ لأن وجود هذه القبائل قديم ونابت منذ أيام هيرودوت وقبل الإسكندر بزمان طويل .

ومن طريف الوثائق ماكتبه هيرودوت يصف جبلا سماه بجبل الأطلس يقول هيرودوت :

« وقد وجدته جبلا مرتفعا شديد الانحدار من ناحيته حتى ليستحيل على الناظر أن يرى قمته التي يغطيها الضباب صيفا وشتاء . ويقول سكان الوادي إن هناك على القمة تقوم دولة السماء ويسكن أهل الأتلاتيس » .

ورد هذا الكلام في رحلة هيرودوت إلى شمال أفريقيا ووصوله إلى منطقة طوارق الهجرة في الجزائر . وأغلب الظن أنه قصد بالقمة التي وصفها القمة المعروفة الآن « مونت أودان » .

ولكن خرافة دولة السماء وقارة الأتلاتيس مالبت أن تناولها أفلاطون لجعل منها المسرح الخيالي لجمهوريته حيث تصورها جزيرة في وسط البحر يسكنها صفوة من المثاليين ويقوم عليها مجتمع نموذجي هو الذي وصفه في جمهورية أفلاطون .

ثم انتقلت خرافة الأتلاتيس لتصبح القارة المفقودة بين أفريقيا وأمريكا التي ابتلعها المحيط وحق عليها عقاب الإله العادل حينما خرجت عن طاعة الله ، (قصة أشبه بالجنة وطرد آدم) ومنذ ذلك الحين دخلت قارة الأتلاتيس إلى كتب الغيبيات وتحولت إلى لغز مثير . والأصل سطر كتبه هيرودوت في رحلته

إلى طوارق الهجرة ..

وهيرودوت يسمى قبائل الطوارق « ناسامون » ناس آمون ويذكر عنها أنها قبائل تصطاد الجراد وتجففه في الشمس ثم تطحنه وتمزج الدقيق الناتج باللبن (وهي عادة موجودة عند بعض الطوارق إلى الآن) .

ويذكر هيرودوت أن ناسامون لهم أيام مقدسة يترددون فيها على قبور أجدادهم لأخذ مشورتهم في أمور الحياة الدنيا أو لسؤالهم عن المستقبل . (وهي عادة مازالت متبعة عند نسوة الطوارق يتن إلى جوار المقابر ليخبرن بأخبار المفقودين والعائين)

ويذكر هيرودوت طريقة تصفيف الشعر وتسريحه عند الطوارق بما يتفق مع الملاحظات المشاهدة حالياً .

ورد لمعت أسماء غريبة لرحالة ومؤرخين ذرعوا رمال الصحارى وألفوا المراجع القيمة أمثال : البكري .. والادريسي .. ابن سعيد .. ابن قاضي .. أبو الفدا .. وابن بطوطة .

يقول ابن بطوطة انه عبر الصحراء الليبية لقبيلة برداما وهي قبيلة من البدو الرحل لا تستقر في مكان وتمتاز بأن نساءها جيلات سمينات ويقول فيهن ابن بطوطة انهن أحمل ما رأى من نساء العالم .

وعصر ابن بطوطة في لصحراء سهورا بخرق فيها مناطق جرداء لاماء بها ولا شجر ويصف لنا مناجم للملح والنحاس ومياه حديدية تفسل فيها بياك فيسود لونها .. ثم يصف لنا صحبته لقافلة بها ستائة فتاة من الرقيق .. يصف لنا وصوله أخيرا الى منطقة الهجرة ورؤيته لقبيلة عجيبة ، رجالها ملمون ونساؤها سافرات « الطوارق » .

ولكن ابن خلدون يقول رأياً مختلفاً في الديانة اليهودية ، فهو يعتقد أن الديانة اليهودية تسلمت إلى الصحراء وأن اليهود انتشروا في قبائل الهوارة بالذات .

ويحتمل أن يكون بعض أجداد الطوارق من اليهود ولكن الأمر المؤكد أن الإسلام اكتسح هذه القلة

وقد دخل الإسلام الطوارق مع عقبة بن نافع وانتشر بين كل القبائل النارجية ، ولكنه بالنسبة لطوارق الجبل والدواخل الرجل كان إسلاماً سطحياً . فعظم العادات الوثنية ظلت على حالها وظلت اللغة على حالها وبقي القرآن كتاباً يقرأ بطريقة بيهيوية دون أن يفهم ، مثله مثل التعاويذ الغامضة الأسطورية .

وهناك مدارس الدين واللغة العربية والقرآن ، ولكنها قليلة جداً ، وهي بالنسبة للقبائل الرجل غير معروفة .

ومع ذلك فقد ظل الإسلام على ضعفه هو علم المقاومة الذي تجمع تحت رايته الطوارق الذين حاربوا الاستعمار الفرنسي والإيطالي .

والاعتقاد في الجن والأماكن المسكونة والأرواح الطيبة والشريرة التي ترتاد الينابيع والجداول . . والاعتقاد في الأشجار التي تلبسها الأرواح ، أكثر رسوخاً عند الطوارق الرجل من العقيدة الإسلامية الزائرة . .

وشيء مألوف أن ترى رجلاً من الطوارق يرمي شجرة ليترد منها الجن . . أو امرأة تعلق شبيشاً قديماً على باب الخيمة لتطرد الأرواح الشريرة ، أو تستعمل قرن خروب لمنع الحسد . . أو عجوزاً تباع أحجية وتعاوِذ أو جلد

ولم تترك هذه القبيلة أثراً طيباً في نفس ابن بطوطة . فقد استوقف بعض فرسانها قافلته وأخذوا منها أقنعة وبضائع ، وكان ذلك في رمضان . ويقول ابن بطوطة عن حرمة شهر رمضان إنه حتى لصصوص الصحارى يتعففون في هذا الشهر عن السرقة فلا يمدون أيديهم إلى شيء ولو كان مفقوداً وبلا صاحب .

أما ابن خلدون فينقل ما يرويه عن الطوارق من شهادة الآخرين .

أما الرحالة الأوروبي أنتونيو مالفونتي . فيصف الطوارق بأنهم جنس راق وفرسان على درجة عالية من النبيل والشجاعة . ويقول إنهم يعتمدون في طعامهم على اللبن والأرز واللحم ، وإنهم ألد أعداء اليهود . ولا يجروهم يهودى على الاقتراب من مضارب خيامهم .

ويقول هيروود إن عبادة الأجداد كانت متبعة في ليبيا القديمة . . وبالنسبة للصحراء الليبية القريبة من مصر كانت عبادة إيزيس وتقديم القرابين للشمس والقمر وتحريم أكل الخنزير ولحم البقر طقوساً متبعة . . وبالنسبة للجزء الشمالى من الصحراء كانت الآلهة أمثال إله البحر والخصب والمطر تعبد . . وكانت القرابين البشرية تقدم في القرن الثالث قبل المسيح .

ومن المحتمل أن يكون الطوارق الأوائل عبدوا آمون . . ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك في الرسوم والحفائر القديمة . . فلم يعثر إلى الآن على رسم قرص الشمس المعروف

والرأى الآخر أنهم كانوا يعبدون الحيوان أمثال الثور والبقرة والزراف (العقائد الطوطمية) ، بدليل ما وجد من رسوم جميلة ومفصلة لهذه الحيوانات .

وبالرغم من وجود رسم الصليب في بعض الآثار التاريخية إلا أن دخول المسيحية إليها أمر مشكوك فيه . . وفي رأى ابن خلدون أن المسيحية لم تدخل الصحراء الليبية . . وهو رأى خاطئ لأن المسيحية دخلت غدامس أيام

الكلمة بالعربية	الكلمة بالتارجية
الأصع	ابصض
الأف	تهار
لعم	امى
اللسان	ابلس
الدق	تامرت
السعر	اهيوف
البطن	ناسا
القلب	اوول
الكبد	وسا
العقل	بانى
المخ	اكلكل
الأسن	يسنان
الكف	دكل
الذراع	فوس
الساق	ابر
القدم	أزره
الأذن	تاما ظوج
الأظافر	أسكارن
لظهر	ارورى
لاكتاف	ايظرن
لرأس	ايغاف

بقرة للوقاية من لدغة العقرب والنعبان ، وهم يشمون جلد بقر الوحش كعلاج من لدغة العقرب .

والطارق الذى يحلم بأنه يأكل البلح يفسر حلمه بأنه سوف يصاب بجراح . . فإذا حلم بشعبان فهو شر مستطير . . وإذا حلم بأنه يحمل راية بيضاء فهو فال حسن ، وإذا حلم بأنه يحمل راية سوداء فهي كارثة .

وخرافة شائعة أن الذى يصاب بجرح يمتنع عن شرب اللبن اعتقادا منه أن اللبن سوف يساعد على تكوين الصديد .

ومعظم هذه العقائد هى بقايا وثنية لم يستطع الإسلام أن يحسوها من الأذهان .

وقد ظل الطوارق يعيشون حياة مستقلة فى أغلب فترات حياتهم ، لم يستطع الغزاة من الفرس والرومان ولا التتار والهكسوس والوندال أن يقتحموا أسوار هذه العزلة لبعدها ولأن متاهات من الصحارى الجرداء كانت تحمى هذه العزلة من كل جانب .

ولهذا استطاع الطوارق أن يصنعوا لأنفسهم حياة وعادات وتقاليدهم وأعرافا وطبعا انفردوا بها ومازالوا يتميزون بها .

وكلما توغلنا فى الصحراء وخرجنا من غدامس إلى أطراف البادية ومراعى الجبال والتقىنا بالطوارق الأول الذين مازالوا يعيشون حياة الفطرة والتفعل بين قبائل الهجارة فى الجزائر والسودان والنيجر ، استطعنا أن نتعرف على تلك

العادات البدائية التي مازالت على حالها لم يهذبها الإسلام .. ومنها تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها الأولاد والبنات .. فتذ أن يبلغ الولد سن الخامسة عشرة ويضع اللثام ويصبح رجلا .. يصبح له الحق في حضور « الهال » ، وهو مجلس الكبار حيث يتسامر الكل في جو مختلط مفتوح في شبه حفل يبدأ بعزف الموسيقى (البزاد) ، وتعزفها في العادة فتاة ثم السمر ثم الغزل فيميل كل شاب على الفتاة إلى جواره يقبلها بحك الأنف في الأنف ويتواعدان على اختلاس اللقاءات في الخلاء .. ويحدث عادة أن تتم اللقاءات المختلسة في نفس الليلة حيث يمارس الأولاد والبنات لعبة الجنس بلا حرج وبلا حمل .

والبكاكة شيء غير معروف في الطوارق (بحوث الأب فوكو والدكتور فولان) .

وفي حالات الحمل النادرة تذهب البنت إلى الداية فتكتب لها تعويذة تزيها في الماء لتشرتها فإذا لم يحدث الإجهاض قامت بإجهاضها ، فإذا حدثت الولادة يخفق المولود .. والبنت التي يعرف عنها أنها حملت دون زواج ينظر إليها في احتقار من الجميع .

وبسبب حرية العلاقات الجنسية فإن الزواج لا يحدث إلا في سن متأخرة ثلاثين سنة بالنسبة للرجل وعشرين سنة بالنسبة للبنت .

وتبادل الجنس ليس عارا عند الطوارق وإنما العار أن يكون ذلك بين رجل وجاريته أو امرأة وعبيدها .

ومن الصعب الحكم على السلوك الجنسي للمرأة بعد الزواج من حيث الخيانة والوفاء ، ولكن من المعلوم أن عقاب الزانية هو الموت .. ومن المعلوم أيضا أن الرجل قد يخون زوجته مع جارياته وعبيداته .. وفي حالة حمل إحدى هذه الجاريات تكون فضيحة ويحدث في مثل تلك الحالات أن تفضب الروجة

عند أهلها ولا تعود إلا في حالة دفع تعويضات مادية كبيرة .

ومن التقاليد العجيبة أن لقاءات الجنس بين العشاق تتم في خلوة وخصوصية ، فإذا ضبط عزول هذه الخلوة فعلى العشيق الذي افتضح أمره أن يبدد بإهداء العزول هدية فورية ، وإلا فإن العزول يرفع اللثام كاشفا عن شخصته ويصبح له الحق في أن يحل محل غريمه في خلوته ..

مجمع
غريب
فني
العلم

والتزواج بين فارس وجارية أمر مستهجن جداً ومشين .
والفرسان لا عمل لهم إلا الحرب وحراسة القوافل والسطو على الأعداء ،
وهم يحتقرون الحرفيين ويعتبرون العمل اليدوى وضعيفاً .

وتستطيع أن تعرف الفارس من مشيته ، فهو يخطأ في خطواته ويختال في
كلمته ويتأنق في ملبسه وأحياناً يلبس لثاماً أحمر زيادة في الأناقة .

ورجل الدين « شريفن » من الكلمة العربية شريف .. له مكانة محترمة في
قبيلة الطوارق ، وهو يعنى من الضرائب ، ويعتبر في مستوى الفارس بالنسبة
للمكانة الطبقيّة .. وهو الذى يدرس القرآن والشريعة الإسلامية لأطفال
القبيلة .

والعبيد والحوارى وكلهم رقيق وأسرى غنمتهم القبيلة في حروبها أو اشتريتهم
من تجار النخاسة .. يعاملون بإنسانية . فالعبد يمكن أن يمتلك رهوساً من الماشية
أوحصاناً ، وهو إذا بلغ سن الزواج فإن سيده يعطيه مهراً ليتزوج .. وإذا
أحب السيد من جارية فإن الإبن الذى ينجم من العلاقة يحق له الميراث ..
ويستطيع العبد أن يخرج من خدمة سيده ليتحق بخدمة سيد آخر بسبب سوء
المعاملة .. وإذا تزوج السيد من جاريته فإنها تصبح حرة .. وبعد إلقاء الرقيق
تحول العبيد إلى خدم وظلوا ملازمين لقبائل سادتهم ..

أما أصحاب الحرف فهم فئة محتقرة وكل من يزاول عملاً يدوياً محتقر عند
الطوارق . والطارق يخاف من الحداد ومن كل من له صلة بالنار أو من يطرق
المعدن ويطر أنهم على صلة بالشياطين والجنان ولذلك يسكن بعيداً عنهم
وينجنهم .

والحلاق عند الطوارق يخلق الشعر ويخلع الأسنان ويقوم بالعمليات الجراحية
الصغيرة كالطهارة وإيقاف النزيف وعلاج الجروح .

يجتمع الطوارق مجتمع طبقى ... على رأس جميع القبائل نجد الأمير « أمينو
كال » وهو الحاكم الأصل للجميع القبائل ويصل إلى الحكم وراثه عن أبيه
كالنظام الملكى .. ورمز الامارة طيل كبير يعلق على باب خيمته ويقرعه هذا
الطبل عند قدوم الضيوف أو فى الحفلات أو فى الحروب .. وخرق الطبل هو
أكبر إهانة يمكن أن تلحق بالأمير .

والأمير هو الذى يعلن الحرب ويدير حططها وهو الذى يفض الخلافات بين
القبائل ، وله خليفة ينوب عنه فى غيابه .. وهو يتقاضى الضرائب من جميع
القبائل .

وبلى أمينو كال فى السلم الطبلى شيوخ القبائل ثم الفرسان ورجال الدين ثم
الرعاة ثم الحرفيون وفى القاع محد العبيد والخدم والجوارى .

والحرفيون معبرون من جنس مشوه ، وهم يهيمون بالتجسس أحياناً وبالخيانة ولكن لا أحد يجرؤ على قتل حرفي لأنه يخشى من انتقام الجن لروحه .

والحرفيون أذكاء وحكماء ، وفهم من يتفنن الكتابة ومن يلبى الأفاضل ويحكيائهم ويرى إلى درجة مستشار الأمير .

وهم يتكلمون كتيبة الطوارق ، ولكن لهم لغة خاصة سرية بنخاطيون بها ، ولهم تعاويذ وطقوس خاصة . . وهم لا يزيدون في مجموعهم عن خمس أو ست عائلات .

والمعتقد أنهم من أصل يهودي وأنهم مهاجرون من فلسطين ، يدل على ذلك تلك المطروقات الفضية الأنيقة الراقية والمفاتيح والأقفال المعقدة التي يصنعونها والتي لا تتناسب مع الحياة البدائية التي يعيشها الطوارق ، وتدل أيضاً عاداتهم العنصرية في عدم الزواج من خارج جنسهم .

واسم هذه الفئة العاملة باللغة التارجية « ايتادين » أى (من لا اسم لهم) وهذا إيمان في تحقيرهم .

وبعض قبائل الطوارق غنية نسبياً . ففي قبيلة مثل كيل هجار أكثر من عشرة آلاف رأس من الإبل ، وفي قبيلة أخرى مثل داج رالى لا تزيد الإبل على ألف رأس ، بينما قبيلة ثالثة هي التاتويك لا تزيد ثروتها على ثلاثمائة رأس .

والطوارق يعتمدون في حياتهم على الرعى والصيد متنقلين من واد إلى واد إلى حيث يحود المرعى ويكثر المطر ، وأهم محصول طبيعي يتاجرون فيه هو الملح ، يحملون به القوافل إلى السودان لتعود بالنالى محملة بالأنفحة والحبوب . فإذا شح المطر وجف المرعى انتشروا في الصحارى والجبال يقطعون الطريق على القوافل . . فإذا استمر الجفاف نزحوا إلى السودان .

وهم في الشتاء يفضلون سكنى الوديان المنخفضة في أحضان الجبال التي يحيطون بها من الرياح . وفي الصيف يفضلون حكنى لأعلى والقمم حيث الحو طلي

وكل هيلة لها مضارب حيامها ولها مجالها الخاصة التي تتحرك فيها وهي تعود من موسم لموسم لنفس الأماكن التي بدأت منها .

والخيام تصنع عادة من جلد الماعز ، يدهن بالزبد وبمادة حمراء لوقايتها من الشمس والمطر .

والمعتاد أن ينام الرجل في شرق الخيمة ومعه الأولاد بينما تنام الزوجة في غرب ومعه البنات .

ولا ينام على سرير إلا الأمير وشيوخ القبائل .

أما المطبخ فهو دائماً خارج الخيمة وهو عبارة عن موقد حوله بعض الطوب والحجارة لحمايته من الريح .

وهم لا يستخدمون حجارة البازلت السوداء لأنهم يعتقدون أنها مسكونة بدجن والسبب أنها تفرقع بصوت شديد بتأثير النار .

والنار عند الطوارق لها أسطورة مقدسة . . فهم يقولون أن النار خلقها الله للإنسان ليطهى عليها طعامه ولكن الشيطان عرف سرها وسرقها ثم أعطاها لصديقه الحداد ليصنع بها الحديد ولهذا خلق الله الجحيم وخصصها للشيطان عقاباً له على سرقة .

وهم لا يوددون النار في دخل الخيمة وإنما دائماً خارجها .

والأثاث عبارة عن صندوق ومخلاة بها ملابس وعدة أطباق وملاعق خشبية وأوتاد لتثبيت الخيمة وإناء للهاء وطاسة لحلب اللبن وأكواب وفناجين .

والمرأة هي التي تنصب الخيمة وهي التي تفكها وتحملها على الحمبر وهي التي تصنع الأدوات الجلدية والأطباق والأوتاد الخشبية .. وهي تستعمل في تنقلاتها الحمار ولا تركب الإبل إلا من كانت زوجة لفارس أو أمير.

وكل قبيلة تخزن ما عندها من فائض التمر والحبوب والمواد الغذائية في محاري وكهوف الجبل ، وعندهم عقيدة أن الله يرعى هذه النخيل ويسهر عليها بنفسه .. وهم يهاجرون ثم يعودون إليها فيجدونها على حالها ، فالتارجي لا يمد يده أبداً إلى مثل تلك النخيل . وعقاب السارق في مثل تلك الحالات شديد .

وهناك أكثر من ستة أصناف من الأعشاب الجبلية والجذور مما يأكله التارجي أثناء الطريق هو ومواشيه ليهدي جوعه .

واللبن والزبد والجبن والحبوب والتمر هي غذاؤه الرئيسي ، وهو يأكل اللحم في حالات قليلة حينما تشرف إحدى مواشيه على الموت فيذبجها وحينما تحب المراعي فيذبج الناقة التي يراها تموت جوعاً أمامه .. وهو يأكل الأرانب والغزلان والجراد .. والجراد المشوى طعام فاخر عنده .. أما لحم الدحاج فيعتبر نجسا مثل الخنزير وبالمثل السمك ..

ولا يجوز أكل ذبيحة لم يقرأ عليها اسم الله ولم تذبج وفقاً للسريرة الإسلامية . وواضح من أنواع التحريم أنه يجمع بين التحريم الإسلامي والتحريم الوثني .

والأكلة الشعبية هي نوع من العصيدة باللبن .

وهم يستعملون الجبن الجفف والطاطم والبصل في تصنيف ألوان من الصلصات . وفي حفلات الزواج والحفلات الدينية تذبج ناقة وتشوى على النار وتقدم مع الكسكسي وتحفظ الرأس والعنق للنساء ، ويقدم الفخذ والمورة والضلوع للضيوف .

وهم يأكلون بالملقعة .. وعادة الأكل بالملقعة عادة غريبة بالنسبة للحياة البدائية التي يحياها التارجي ، ولكن تفسيرها هو حرصه على عدم رفع اللثام أثناء الأكل وبالتالي احتياجه إلى وسيلة كالملقعة لدس الأكل في فمه .

والإبل والماعز والماشية والحمبر والكلاب هي الحيوانات التي يربئها التارجي .

وهم في العادة يختمون إبلهم بعلامات خاصة ، كل قبيلة لها علامة مميزة تختتمها على رقبة الجمل أو فخذه بطلاء أحمر .

ورأس إبل عندهم أمن من وزنة ذهب ، أما الحمبر فلا يهتمون بها ، وأحياناً لا تعرف القبيلة عدد حمبرها وأحياناً حينما يشع المرعى تترك القبيلة جزءاً كبيراً من حمبرها وترحل .

وهم يصطادون الغزال وبقر الوحش والزراف .. يخرج أربعة من الطوارق معهم عشرة كلاب في فرقة صيد ويطاردون الفريسة حتى تسقط إعياء ، وهي في حالة الغزاة وسيلة كافية ، أما بقر الوحش ، وهو حيوان شديد البأس ، يدافع عن نفسه حتى الموت فيحتاج الأمر إلى حصار وقتال بالحراش أحياناً يذهب ضحيته عدد من الكلاب أو الصائد نفسه

ولكنهم الآن يستعملون البنادق في كل شيء بدرجة تهدد وحوش الصحاري بالانقراض .

والثقافة المتبعة إذا طاردت قبيلة حيواناً في أرض قبيلة أخرى واصطادته أن تعطى حنده ورأسه ونصيباً من اللحم للقبيلة صاحبة الأرض .

والطوارق رحل لا يزرعون الأرض احتقاراً للعمل اليدوي واحتقاراً للاستقرار ولكن في بعض الأماكن حيث يغزر المطر وتكثر العيون الجوفية تجب

التارجى يررع القمح والشعر والحزر والعدس والبصل والبطخ والنسهم ..
ويحد حدائق من اللين والعب والحيل .

لكن مثل تلك المزروعات تصبح تحت رحمة الحر والبرد والعواصف
والسيول والجفاف وجذب الأرض وافتقارها مع تكرار الزراعة .. والترجى
ليس عنده طول بال الفلاح ولا صبره ، وهو ما يلبث أن يهجر الأرض الى
أجدبت دون أن يفكر فى إصلاحها .

وهو حينئذ يزرع فليأكل لا لبيع .

وسعادته وهو يضرب فى العلوات تعدل محصول ألف ودان .. يكفيه ما يحلب
من ألبان إبله وما يقطف من بلح وتمر فى الطريق وما نجود به المرعى ، فإذا
جف فأرض الله واسعة .

وليست من عادة التارجى الاغتسال يومياً بسبب شح الماء فى الصحارى ،
وهم يقولون ان الاغتسال يومياً ضار بالبشرة وهذا صحيح نظراً للملوحة المياه
وجفاف الجو كما أنه يؤدى الى تشقق الجلد .. وهم لهذا يستعملون الزبد
للتنطرية .. ويتوضأون للصلاة بطريقة التيمم (بالرمل الجاف بدون ماء)

ولكنهم شديداً العناية بأسنانهم فهم يستعملون السواك والمضمضة بالماء عدة
مرات بعد الأكل .

وهم يخلقون للأطفال رهوسهم الاخضلة يتركونها فى الوسط .

والنساء يصفرن شعورهن صفائر كثيرة على الجانبيين ويستعملن الريد
للشعر .

والنساء والرجال يخلقون شعر العانة ويقصون أظافرهم ويكحلون عيونهم ،

ومحلفات الشعر والأظافر تدفن فى مكان بعيد حتى لا يسحر عليها أحد أو يقرأ
عليها تعاويذ مهلكة

والوشم غير معروف لكن المرأة تستعمل الأحمر للزينة .

وفى المهرجانات قد تجد امرأة تنقش على وجهها رسوماً عجيبة (طريقة
الهيبي) ، وترقص كنوع من التهريج أو كبقايا طقوس وثنية .

والمرأة التارجية أقصر من الرجل وأكثر سمناً واستدارة وهى ذات عيون
واسعة كحلله وجهة عالية ويدين دقيقتين رقيقتين .. والسمنة عنصر هام فى
الجددية الجنسية عند النساء وهن يتوسلن لها بكل طريقة ويأكلن أنواعا
خاصة من الأعشاب يعتقدن أنها تسمن (كالمفتقة عندنا) .

علاج
الإمساك
بشجر
الاجرجر

ولا مرض عندهم قسبان : مرض جسدى يعالج بالأدوية ، ومرض روحى يعالج بالسحر « أمى كيللو » .

وعلاج من تلبسه الأرواح الشريرة هو إلقاء الرعب فى قلبه عن طريق رقصه محببه بالأقنعة تتخللها الصرخات والطبول حتى يفقد الوعى ويدخل فى غيبوبة يخرج أثناءها الروح الشريرة وتفر مذعورة ولا تعود .

وهم يمارسون الجراحات البسيطة كالطهارة وعلاج الجروح وتجبير الكسور والقطع الحادث بعد الطهارة يدهن عادة بالزبد .

والأناقة وحسن المظهر مسألة غاية فى الأهمية بالنسبة للتاجى .. أهم من الطعام أن يتأق ومحتال ..

والطوارق أصحاب قامة طويلة وفرع باسق وأكتاف عريضة ، وهم يرفعون رؤوسهم فى اعتزاز حينما يشون كأنهم أمراء أسطوريون . ويلبس الواحد منهم سروالا واسعا يغطى قدميه ، وفوق السروال عباءة فضفاضة بيضاء أو زرقاء أو ملونة . وعلى الرأس تلبية تلف كالعمامة وتغطى الرأس ثم تنسدل كاللثام فوق الفم والأنف فلا يبق ظاهرا منه إلا العينان السوداوان البراقتان .. وفى القدمين يلبس صندلا .

والرجل يتعلّى بالخواتم الفضية المزركشة والأساور المنقوشة من حجر الشبست . وعلى الأساور يكتب عادة عهدا بالوفاء لمحبيه أو دعوة بالقوة والتوفيق فى القتال ..

وهم يتنافسون فى حمل الأكياس الجلدية الأنيقة .. جراب جلدى للولاعة .. وجراب جلدى للسواك .. وجراب جلدى للإبر .. وجراب جلدى فيه آية قرآنية أو تعويذة .. يحملها فى سلسلة مدلاة على صدره ..

الطوارق أطباء بالفطرة .

وهم يطيبون المرضى بالفصد والكى والحقن الشرجية والعلاج بالأعشاب .

وعندهم ما يشبه تذكرة داود وعلم غزير بالأعشاب القابضة والمسهلة والمخدرة والمدررة للبول والمقوية للقلب ، ويستعملون الورق المغلى والمجفف والمسحوق والبذور والجذور بفطنة ربما .. وصلت إليهم عن طريق العرب .

وهم يستعملون لبن الحمير كعلاج للسعال .

ويجففون شجرة الأجرجر ويدقونها ويستعملونها علاجاً للإمساك .

ويداؤون الإسهال بشجرة النبق .

وبالنسبة للنساء هناك تصانيف أكثر من الحلى .. هناك خواتم من الفضة كبيرة ذوات الفصوص وأحياناً يدل الفص مجد علية صغيرة للعطر .. وتلبس المرأة اثنين أو ثلاثة من هذه الخواتم الكبيرة في اليد الواحدة .. وهى دائماً من الفضة .. لأن الذهب مكروه عند الطوارق ولا أحد يتحلى به لأنهم يعتقدون أنه مجلبة للشّر والطمع .

وهناك رواية يرويها مؤلف من تمبوكتو عن رئيس الطوارق (أكيل) لذى كان يرفض أن يلمس الذهب بيديه لأنه يجلب النحس .

والأساور المنقوسة من الفضة والمحلة نفصوص النؤلؤ . والأساور الزجاجية والأساور المخلدة المحلاة بفصوص كرمة . والقلائد التى تتدلى من العنق ومنها فص من العاج والكردان . والستيف ذو الفص الأحمر من المرحان .. والدلايات الفضية المزركشة .. كلها حلى ضرورية بالنسبة للمرأة .. والحلق يكون عادة من الفضة وكبير ويتدلى على العنق .

وفى الشعور والضفائر حلى أخرى تتدلى على الظهر .. هذا عدا الأحذية الفضية وجراب الكحل وجراب الإبر .

والسواء لا يلبسن هذه الحلى إلا فى الأفراح والمهرجانات .

أما فى الأيام العادية فتودع هذه الحلى فى صناديق ذوات أقفال حديدية يحمل التاجر مفتاحها فى حله وترحاله .

والمرأة التارجية صانعة ماهرة ، وهى التى تسليخ الجلد وتدبغه وتصقله وتصنع منه الخيام والحلى الجلدية والصنادل والمخائب .. وهى أيضاً التى تصنع من الخشب أوتاد الخيمة والصحون وأوانى الحليب .. وهى التى تصنع من الفس القبعات والحصر .. وهى التى تغزل من فراء الماشية الحمال المتينة

وهى تؤدى عملها دائماً بدرجة عالية من الدقة والتفنن .

والنبات ذوات المنبت العريق يتفاخرن بما تصنع أيديهن من تلك الأدوات ولا يركنها للعبيد ، وإنما يصنعنها بأيديهن ويقدمنها هدايا حب لأصدقائهن . وصناعة الجلد والخشب والقش والصوف هى الصناعات التارجية الأصيلة وهى تماليد وأسلوب وخصائص وملامح مميزة .

أما الحدادة وصناعة المطروقات وتشكيل الفضة والنحاس وصناعة الأقفال والمفاتيح والولاعات فيختص بها « الإينادين » كما ذكرنا ، وهم من أصل يهودى .. وهم يعتمدون على صهر العملة الفضية كمصدر لحام الفضة .. أما الحديد فمن صهر الحردة والعلب الفارغة التى يجمعونها من الطريق . والنحاس من صهر الخرطوش الفارغ .. وبصنعون منه الأقفال والسكاكين والإبر والملاقط والأدوات الدقيقة .

أما الأسلحة فهى مستوردة فى أغلب الحالات .. لكن بعض القبائل التى سكن فى أماكن يوجد بها خام الحديد بكثرة تستغل بتعدين الحديد وتصنع الخناجر والحراش والأسلحة .

أما صناعة الفخار فقد استخدمها العبيد .. وهم الذين أدخلوها للطوارق . وهم الذين يصنعون الطواجن الفخارية والأواني المختلفة .

ونظام القوافل فى الطوارق يختلف عن نظام القوافل عند العرب . فالطوارق يركبون دائماً فى مقدمة قوافلهم لاستكشاف الطريق ويتركون وراءهم مرشد يوجهون الإبل للاحتفاظ بالصف (والسبب هو ارتفاع وهبوط وتعرج الطرق الجبلية) ..

سـ يركب العرب فى مؤخرة قوافلهم ويتركون الإبل شبه حرة دور مرشدين

لسبب واضح أنهم يسكنون فلووات منبسطة لا عوائق فيها وهم لهذا يكسفون الطريق كله من مكانهم في المؤخرة ويوجهون خط السير دون صعوبة تذكر ويدعون الفرصة للإبل لتنتقل وراء العشب كيفما شاءت دون قيود الصنف . فالأعشاب شحيحة ومتفرقة في الصحارى وليست بالكثرة ولا التركيز كما هي في الوديان الحبلية ..

والطوارق أحياناً يؤجرون لحراسة القوافل التجارية مقابل نصيب معلوم من البضائع ، وأحياناً يعطون الأمان لقافلة تمر في أراضيهم مقابل ضريبة محددة . وأحياناً يقدمون إبلهم ومرشديهم للقوافل مقابل عمولة .. وهي مناسبات تشكل لهم مصادر سخية للدخل

ولم تكن هناك عملة مصكوكة خاصة بالطوارق .. وإنما كانوا يتعاملون بالمقايضة ويعتبرون مقطع القماش وحدة للتعامل .. ولكن الجنيه التركي الذهب كان عملة مقبولة .

والقاعدة عند خروج الطوارق بقوافلهم للمقايضة في السودان أنهم يتركون النساء والشيوخ والأطفال في مضاربهم ولا يخرج للارتحال إلا الرجال القادرون .

وقطع الطريق على القوافل السرقة والسطو هو عادة بعض قبائل الهجارة وليس كلها ، والفرسان يحكون عن هذه المغامرات في محال التفاخر والزهو أمام النساء .. وهم يقومون بها بدافع سلب الحلى والثياب الجميلة لإهدائها للعشيقات والمحبيات .

والصيف هو الموسم المختار لمثل تلك المغامرات لأن الجفاف والحرق وشح المرعى يدفع القبائل للتفرق بحثاً عن العشب .

وتوضع الخطة في المساء ثم يخرج الرجال في ارتحال سريع بغية انقضاضة مفاجئة قبل الفجر على خيام القافلة .

وبعد معركة سريعة يفر الحراس عادة ، فيقود اللصوص الإبل ثم يدخلون الخيام ويجمعون ما يجدون من حلى وثياب ويفرون .

ويحدث عادة أن تنقض القبيلة المعتدى عليها في هجوم مضاد يرصدون له كائن خاصة عند الآبار التي يعرفون أن اللصوص سيردونها في طريق العودة . ويحدث الالتحام ويقع قتلى وجرحى كثيرون .

وأحياناً يحدث اتفاق سلمي وتدفع القبيلة المعتدى عليها ضريبة محددة من الإبل والثياب في مقابل تسوية معقولة .

وقطع الطريق على القبائل السودانية يكون عادة بهدف خطف البنات والأولاد ليبيعهم في أسواق النخاسة أو استخدامهم كعبيد .

أما الحروب المنظمة بين القبائل فأكثر ندرة من حوادث قطع الطريق وهي تحدث عادة لأسباب سياسية .. تنازع على السلطة أو خلاف حول المراعى .

وهم يختارون الشتاء موسماً لحروبهم حيث تكون كل قبيلة قد جهزت نفسها بخزين من التوطين والمواد الغذائية .

ومن تقاليد الحرب ألا يعتدى على النساء الأسرى .

والاعتداء على امرأة أسيرة وصمة عار لا تمحى في جبين المعتدى وقبيلته .. وكثيراً ما حدثت سلسلة من الحروب الانتقامية بسبب مثل هذا الحادث .

والأسلحة المستعملة في الحروب هي السيوف والحراب والخناجر والبلط . أما العبيد فيسلحون بالعصى ولا يحمل الدروع إلا النبلاء والرؤساء والقواد .

وفد دخلت النادق والمسدسات والرنشاشات الحروب القليلة بعد دخول
الفرنسيين .

وأول رحالة غربي اكتشف الطوارق هو الانجليزى جوردون لانج ١٨٠٠
الذى بدأ رحلته من طرابلس إلى تمبوكتو عابرا اغدامس وفي الطريق تعرف
على الشيخ عثمان « شيخ منطقة الزاوية » الذى دله على مسالك الصحراء
ولكنه قتل قبل أن يتم رحلته . قتله الأدلاء العرب الذين كانوا يرافقونه .

وفي سنة ١٨٤٩ استطاع الألماني هنرى بارت أن يتم الرحلة التى لم يستطع
زميله الانجليزى اتمامها ، فوصل إلى تمبوكتو ثم عاد إلى طرابلس مارا بكل
قبائل الطوارق في المنطقة . . وبذلك دخل التاريخ مع الرحالة العظام أمثال
لفنجستون وستانلى وبراذا .

وأول مرجع واف عن الطوارق هو ما كتبه دوفيريه الفرنسى في رحلة
استغرقت ٢٨ شهراً ، رافقه فيها الشيخ عثمان والرئيس التارجى أخنوخ .

وقد حدث بعد ذلك أن دعا دوفيريه الشيخ عثمان إلى باريس وقدمه إلى
نابليون الثالث .

وأعقب هذا اتفاق تجارى بين الفرنسيين في الجزائر وبين الطوارق . .

وبعد ذلك بدأت المقاومة ، فرفع الطوارق المسلمون شعار « لا كفار
ولا مشركين في بلادنا » . . وبدأ التقتيل يطارد كل بعثة فرنسية تحاول احراق
الصحراء .

وتوقفت البعثات عشرين عاماً .

وفي عام ١٨٩٩ عاد الرحالة فوريد ومعه ثلاثمائة رجل مسلح ليقتحم قبعة
الصحراء . . وهذه المرة استطاعت البنادق الحديثة والمسدسات المتعددة

الطلقات أن تقتحم القلعة ، ورفع فوردي العلم الفرنسى على واحة عين صالح
وأعلن احتلالها .

وحاول الطوارق بقيادة « تيت » الهجوم على الفرقة الفرنسية ولكنهم عادوا
وقد تركوا وراءهم سبعين قتيلاً .

وبعد ذلك بدأت القبائل التاريخية تعلن خضوعها واحدة بعد أخرى .

اللغة
البربرية
و
البربر

وأمام الظلم والاستعمار يهب الكل . . كما يهب غوما العربي يهب أخيا
لتأرجح ويتنفض سليمان الباروني البربري .

وقد عرفت القاهرة سليمان الباروني حيا كان يصدر جريدة لأسد
الإسلامي

وقد أطلق سليمان شعر لحبه ورأسه وأقسم ألا يحلقه . لا حينما يخرج آخر
حدى إيطالي من أرض الوطن . وقاد الكفاح الليبي ضد الاستعمار الإيطالي
وسافر إلى تركيا ثم الهند ثم توفي في عباي وما رل له فيها قبر يزار .
وفي اللغة البربرية يستعمل حرف (ت) للتأنيث كما في العربية :

ديك زبيط

دحاجة تزبيط

حصان : أحمار

فرسه محمرت

وفي بصرف الأفعال يضاف حرف (و) ليدل على الماضي ويضاف حرف
(أ) لدل على لأمر وحرف (س) للمستقبل كما في العربية

بقتل بناغ

قتل بنغو

سيفتل سبيغ

أقتل : أنغ

وهناك شواذ مثل فعل يأكل وفعل ينام :

بطول الشمال الأفريق . . في ليبيا في جبل نفوسة وزواره وفي جنوب تونس
وفي وادي مزاب بالجزائر نجد اللغة البربرية والبربر .

وقد رأينا أن اللغة البربرية تدخل في تكوين اللغة التارجية وتدخل في
تكوين اللغة الغدامسية وتدخل في لهجات سكان الدواخل الليبية .

وقرأنا في التاريخ أن البربر هم أصل الطوارق ، وفي إحدى النظريات أنهم
أصل الفراعنة أيضا .

وقد استطاعت الصحراء الليبية أن تذيب العرب والطوارق والبربر في
سبيكة واحدة متناسقة ذات وحدة وطنية .

الكلمة العربية	الكلمة البربرية
الأبيض	مل لل
الأسود	زطف
الأحمر	ازقاغ
الاصفر	أوراغ
أبا	نيتش
هو	بيت
أنت	شك
هم	نيتن
يأكل	تيت
يسم	يططس
يشرب	يساو
مقتل	يناع
العصفور	الشيشيو
الدجاجة	تياريط
الصقر	ابري
الأفعى	تليفساء
العقرب	تفاردنت
العسكيات	أرتيلت
الدودة	تكينسا
النور	فوناس
السمرة	تفوناسيا
حمامه	تاجحات
الصفير	ابري
الكبير	أزعلوك
الصغير	أمران

يأكل : يتت

أكل : يتشو

كل : انش

سوف يأكل : سايش

وفي فعل ينام يستخدم التخفيف فيحذف حرف (ط) للدلالة على الماضي :

ينام : يططس

نام : يطس

سينام : سيطس

نم : اطس

وللجمع يضاف حرف (ن) :

حمل : الغم

جمال : ايلغمين

حصان : احمار

أحصنة : اجمارن

ديك : زبيط

ديوك : ايزيطن

ذئب : أوشن

ذئاب : أوشانن

ومن الأغاني الشعبية البربرية التي يغنونها في الأعراس مثل أغنية « مبروك عليكى يا عروسة » عندنا .. هذه الأغنية وكلاتها بالعربية :

رأيتها نائمة وشعرها متناثر حولها

والأسطورة تلمع في يدها

كانت متكئة

ونظراتي تحجج اليها

كما تحجج نظرات المؤمن الى مكة

بل أكثر .. استغفر الله

رأيتها تسير

وعودها ينساب كالسفينة

معبأة بكل ما يخطر ببالك

من عنبر وعطور وطلع حميلة

وكلاتها بالبربرية

رر يفظط ططس

مط تنس محل وس

أديح دوفسس ببجص

رر يعطط تنكا

ديس انتح خران مكا

لاعتل ما مديغ

رر يفظط نيحور

الجدنس أمالبابور

يا سباسسلعت يتشور

أبللا تملد يلا ديس

والأعراس الشعبية لها تقاليد طريقة عند البربر .

أول يوم في الفرح ويسمونه فرش الحصيرة « ايساين جرتيلت » يطلقون الزغاريد والبخور وتغنى فرقة من العبيد « وكل المغنيات والراقصات عبيد سود وليسوا من البربر وهم نسل الرقيق القديم الذي أعنتق وظل يخدم ساداته ويتوارث هذه الخدمة أبا عن جد » ، والبربرية الأصيلة وهي عادة بيضاء وحيانا شقراء لا تغنى ولا ترقص وإن كانت بعضهن زجالات وشاعرات . وفي اليوم الثانى من الفرح تقدم الصرة وبها الكسوة والحنة والسواك والبخور تحملها جارية في موكب زغاريد من بيت العريس إلى بيت العروس .

وفي الليل تقام حفلة ساهرة في بيت العريس .. رقص وغناء وزغاريد .. ثم يتقدم أحد المغنين العبيد ويعدد محاسن المعازيم على الطبلية في مقابل النقطة « ايريج » وفي ثالث يوم وهو يوم مشهود يشرف السلطان « العريس » في المساء مع حاشيته ويجلس وعند قدميه يجلس عبيد .. وفي نفس الوقت تنصرف السلطانة « العروس » لتجلس مع أترابها من البنات .

وتطول جلسة السلطان وهو يتلفت حوله في الأظلة (وهذه الأظلة جزء من التقاليد) ، ثم يمد يده إلى العبد الجالس عند قدميه فيعطيه زجاجة عطر ويمتعه منحة مالية وبذلك تفتتح الحفلة ويبدأ الرقص والغناء .

وفي الليل تسير السلطانة في زفة وتعمل لفة على قدميها في البلدة على ضوء المشاعل وأنغام وزغاريد فرقة العبيد .. والأغنية التي يرددونها في تلك المناسبة :

بالأيا نروح

تدتر تام طوح

ومعناها .. هيا يا سيدتي .. اسرعي الخطو فالبيت بعيد .

وفي ليلة الدخلة يسير موكب يتقدمه أقرباء العريس إلى بيت العروس ويأخذون السلطانة إلى بيت عريسها .. وأثناء الطريق يطوق العبيد الموكب ويحجبونه بملءة كبيرة تخفيه عن أعين الفضوليين .

والبربرية لا تزوج إلا بربريا .

والحب العذري عندهم موجود ولكنهم محافظون جدا إلى درجة التزمّت . فالبنات تحقن وراء حجاب ولا تختلط بالرجال ولا يستطيع أن يختل حبيبان في خلوة .. والتعارف لا يزيد على نظرات مختلسة .

ولأم هي التي تستطلع وتختار لابنها ثم يتقدم الأب ليخطب ويكتب الكتاب مهر رمزي ٢٥ قرشا كما هو متبع في الشرع ثم يشترك الزوجان في الأثاث والجهاز .

وبالنسبة للموت تكتفي المرأة بوضع وشاح أسود حول رأسها لمدة أربعة أشهر وأحيانا وشاح أحمر « افكاي » . وتجتمع النساء في مجموعات ليبيكين « دموع الرحمة » ويشترك الجيران في جلب الطعام لأهل الميت ليأكل المعزون .. وفي اليوم الثاني تذبح ذبيحة توزع على الأهالي وتتل الحنطة لمدة ثلاث ليال « ايبقران » .

والمجتمع البربري مجتمع استقرار يعتمد على الزراعة (الحبوب والزيتون والتين والرمان) . وهناك صناعات غزل وصناعات جلود وأحذية يحترفها بعض البربر .. ولكن صناعة الحدادة تتوارثها أسرتان كلتاها غير بربريتين .

وطبقة الصفوة الرائدة هم الموظفون الإداريون وفقهاء الدين ويسمومهم « العزابة » ، وهم الذين يقومون بالإفتاء وتعليم القرآن والشريعة وكتابة عقود الزواج والطلاق .

وهناك قلة من كبار الملاك .

ومستوى المعيشة مرتفع نسبيا بين البربر والإقبال على التعليم كبير لأن كل واحد يحلم بأن يصح « عزابة » .

والبوتاجاز والتلاجة والتليفزيون والترازيستور والكاديلاك والبويك دخلت جبل نفوسة .

أما العبيد والسود فيولفون طبقة داخل بعضهم ، تحترف الزراعة والرقص والغناء والخدمة في البيوت .

ويغنى السود في أعراسهم أغاني تكشف عن ماضيهم الطويل الأليم .

باباى من كاوار

وأمى خادم

واللى جرى لى ماجرى لبن آدم

باباى من كاوار

وأمى حره

واللى جرى لى ماجرى للضره

ولكن بعض السود المحظوظين استطاع أن يتعلم في الجامعة .

وبعضهم دخل الجيش والبوليس .

ولا يوجد مسيحيون بين البربر .

وكلهم محافظون إلى درجة التزمّت .

وهم يتبعون المذهب الأباضى .

والمذهب الأباضى يختلف في بعض شكليات قليلة عن المالكي والشافعي والحنفي ، مثلاً عندهم لا بد من البسملة مع كل سورة .

والصلاة تبدأ بدون رفع اليدين إلى جانبي الرأس .

والتشهد بدون حركة الأصبع .

والخلافة تجوز من خارج البيت الهاشمي لأن شرطها هو الكفاية الحلقية

والدينية وليس الدم الهاشمي .

وفي نظرهم أن علي بن أبي طالب أخطأ حيناً قبل التحكيم في واقعة الجمل .
وقد ثبت أن الواقعة حدثت بين جيش معاوية وجيش علي . . واكتشف معاوية
مدكانه أن فرصته في النصر قليلة فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب
التحكيم

وفي نظر لأرضيه أن علياً أخطأ بقول التحكيم لأنه صاحب حق في
الخلافة . وبصرف النظر عن هذه الفروق الشكلية فإن البربر شديدي الإيمان
وشديدي التمسك بأخلاقيات الإسلام ، وهم ودعاء أمناء قلياً يصل بينهم شجار
أو خلاف إلى درجة البوليس ، لأنهم يحلون أكثر مشاكلهم على المستوى العائلي
وعندهم كلمة « رجل جيالى » مرادفة « لرجل أمين » .

ابناء
نوح

مصاريم أنجب الفراعنة .

وفلسطين أنجب الفلسطينيين القدماء .

وكنعان أنجب البربر .

وكلمة بربر جاءت من الجند الأكبر بربر بن تمل بن مازيغ بن كنعان بن
نوح .

وجاء البربر في هجرة من الشام إلى شمال أفريقيا ثلاثة آلاف سنة قبل
المسيح أي قبل التاريخ .

وكان الرحل منهم يسكنون الخيام من الشعر والوبر وبعض الذين استقروا
على الزراعة في الوديان كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وينقرون في الجبل
غرفات كاملة يرافقها وما زالت بعض هذه البيوت المنحوتة باقية في جبل
نفوسة وفي جنوب تونس وجبال الأوراس .

وكان دين البربر القديم هو آمون ومظاهره الشمس والقمر والكيش ذو
القرين وكانوا يقدسون الحمامة والطاوس والقط والضفدعة والسلحفاة ..
وكانوا يعتقدون أن قتل هذه الحيوانات يصيبهم بالشلل والجنون والعاهات .

وما زالت عقيدة تحريم صيد الحمام باقية إلى الآن في أنحاء كثيرة من المغرب .
واعتقد البربر في الجن والأرواح التي تسكن الينابيع الحارة .

وكانت الأم عندهم مقدسة وكانت تحكم على القبيلة وتسوس الرجال .

وكان الاس قدما ينسب لأمه لأبيه .

وستخدموا لغة منطوقة ومكتوبة هي اللغة البربرية .. واللغة المكتوبة سموها
« تيفيناغ » وهو نفس الاسم المستخدم في اللغة التارجية .

في كتاب العبر لابن خلدون يروي لنا ابن خلدون عن شجرة عائلة نوح
وأولاده قائلا : ان نوح أنجب ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافث

أما فرع يافث فهو الذي جاء منه سكان شمال أفريقيا الذين استوطنوا هذا
المكان من العالم قبل البربر وهم أجناس ما قبل التاريخ الذين يطلق عليهم
الكروماجنون . ويقول عنهم ابن خلدون أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر
والكيش والقرود والنور وكانوا يدفنون الميت في وضع جنيني لاعتقادهم بأنه
سوف يبعث كميلاد الجنين من بطن الأرض .

أما فرع نوح الثاني « حام » فهو قد أعطانا ثلاثة أبناء هم مصارييم
وفلسطين وكنعان ..

وترجمة كلمة تيفيناغ . الحروف المدركة من عند الله .

وأكثر الكلمات البربرية تجدها في اللغة التارجية بنصها .

وحينما دخلت اللغة العربية مع الإسلام شرع البربر في بربرة الكلمات العربية بإضافة التاء إليها :

الدار	تدارت
الحانات	تاحنوت
الغابة	الغابت
الجنة	الجننت

وهناك أمثلة شعبية بربرية تشبه في المعنى أمثلتنا العربية :

انفسى تشورداس - يلاق العضم في الكرشة

ويدهكلن يطاود - من صبر ظفر

اعرم وليتو ابى دباس - الدنيا لم تن في يوم

طيطس أنا وساعت - أبو عين فارغة . . أبو عين جريئة

تالويت سوراف الابلاسيقنطارن - الشفاء بالدرهم والمرض بالفنطار .

وقد أقام البربر دولة بربرية كبرى كانت تشمل ليبيا والمغرب وموريتانيا . وحفظ لنا التاريخ أسماء ملوك عظام أمثال صفاقس ومصنيا ويوغورطة ويوبا .

وقد غزا الرومان الدولة البربرية وأسرؤا ملوكها وساقوهم مكبلين بالحديد في شوارع روما وجندوا ألوف البربر في جيوشهم بالسخرة .

ويروى لنا التاريخ المعارك بين يوليوس قيصر ويوبا .

ومرقت الدولة البربرية . . ولكن ظلت المقاومة تندلع من برابرة الجبل ولورات بنوالى ضد حكم روما .

ويروى لنا التاريخ أن أحد الأباطرة الرومان سبتموس سافاروس كان من أصل بربرى وأنه أنصف البربر وسن القوانين بمساواتهم بالرومان في عهده .

وما زال تمثال سبتموس سافاروس قائماً في أحد ميادين طرابلس إلى الآن .

وقد تعانقت الديانات البربرية القديمة مع الديانات الرومانية ، فكلها كانت ديانات وثنية

وحينما جاءت المسيحية كان البربر أسرع من الرومان اعتناقاً لها ، فقد وجدوا فيها خلاصاً وأملاً .

وفي عهد الامبراطور صوكلسيان أحرقت وقتل الافا من شهداء البربر المسيحيين .

وحينما دخلت روما المسيحية . . أنشأ اثنان من القسس البرابرة مذهباً مسيحياً خاصاً اسمه الدونسية . واعقب الكثير من البربر اليهودية لكافة في الرومان .

ويروى لنا التاريخ سقوط الحكم الرومانى على يد قبائل الوندل (قبائل حرمانيه غاربه من التتار) .

وبعد موجة غزو الوندال تأتى موجة الغزو البيزنطى .

وفي سنة ٦٤٨ وفي حكم عثمان بن عفان يدخل القائد المسلم عبد الله بن سعد على رأس جيش من عشرين ألفاً ليحارب مائة وعشرون ألفاً من البربر بقيادة جرجير البربرى وينتصر عليه ويقتله ويدخل الإسلام لأول مرة إلى البربر .

الكلمة العربية	الكلمة البربرية
الحب	عاس
الكراهية	اكراه
الفرح	اسلان
الوردة	نوردبت
الشجرة	تشعربت
الطفل	نموش
المرأة	مطوط
الرجل	ارحاز
الفتاة	تعذبت
السحاب	أبيلم
الماء	أمس
البار	تفاوت
اللس	اغى
العيب	دورين
التين	ايملكن
الزيتون	أرمور
الخبر	عرون
القمح	يردن
الشعير	طمرين
الذرة	الى
البرسم	الصفصاء
حصان	احمار
حمل	العم
ذئب	أوشن
الأسد	وار

ولا يبقى أثر لهذا الطوفان من الغزو الروماني والوندالي والبيزنطي .. لا نجد أثرا من وثنية أو مسيحية أو لغة رومانية أو جرمانية أو بيزنطية برغم سنوات من حكم السيوف .. وبنتح البرابرة أذرعهم للفرقة الجدد لغة ودينا ليصبح الإسلام هو الدين الوحيد والعربية هي لغة الشمال الأفريقي كله .

ونسمع الآن في جبل نفوسة ، في مولد النبي ، البربر ينشدون المدائح النبوية المؤثرة بلقمتهم البربرية :

باتا يبرفد تلقيس .. اس مكة استوففت ايشركن

عنجال الدين انريس .. بيوض الدباغ سيضفا عن

ومعناها :

ما أشد ما لقي النبي من عذاب

من مكة وطنه أخرجته المشركون

ومن أجل دين ربه

رحموه بالأحجار حتى نزل دما

كلمة
الله
في
الصحراء

وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد مركزاً إسلامياً هاماً في وسط أفريقيا

ويعتبر المؤرخ دوفرييه أتباع السنوسية في عام ١٨٧٣ بحوالى ثلاثة ملايين . ويقول هاملتون ان السنوسى أسس أكبر أخوة دينية في أفريقيا امتدت مروعها من مر كس إلى الحجاز .

ما هي الدعوة السنوسية ؟

كان اس السنوسى يرفع شعاراً واحداً هو إعلاء كلمة الحق تنه العاقل وتعلم الجاهل وترشد الضال .

وكانت وسائله هي التقرب الى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح والكفاح واتناع لرهد وبراء التسايح والذكر حتى يصل بالمريد إلى درجة النورانية والوجد .

ولكنه لم يكن صوفياً منقطعاً ، وإنما كان مبشراً له رؤية اجتماعية .. وفي ذهنه نظام مثالي عاش يخطط من أجله ..

كان يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى على صورة جديدة .

ومن أجل هذا الحلم أنشأ نظام لزوايا .

وفي أواخر عصره كانت هناك ١٢١ زاوية منها سبع عشرة في مصر وواحدة في استنامبول واثنتان في الحجاز وست وستون في طرابلس وبرقة وعشر في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في السودان الأفريق .

الصحراء كانت دائماً مخبأً عظيماً للحرية والحركات التحريرية وأوكر للثور والمفكرين ، احتضنوا فيها أفكارهم حضانة طويلة قبل أن تفرغ ذوايع غيرت وجه الأمة العربية .

وكانت جميع هذه الحركات التحريرية دينية .

السنوسية في السهل الأفريق والمهدية في السودان

في بركة وواحة الجغبوب والكفرة وغدامس كان اس السنوسى يتنقل ليسر دعوته بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سليمان والجسابة . وأكثر من هذا كان السنوسية يشترى العبيد والأرقاء صفاراً من السودان ويربونهم في جغبوب وغدامس حتى إذا بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلوم الدينية أعتقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان لنشر الدعوة بين أساء حنهم

كل زاوية مبنية على مكان مرتفع حصن لتكون كالقلعة .

وبكل زاوية مسجد ومدرسة ومكتبة وحدائق وأراض موقوفة .

والزاوية ملكية عامة للنظام نفسه هي والأراضي الموقوفة عليها . . فأنص غلات الأراضي إذا كان هناك فأنص يرسل للمركز ليرسلها بدوره إلى الروايا التي يديرها .

وكل فرد من أفراد القبائل يتبرع بحراث يوم وحصاد يوم ودراس يوم في أرض الزاوية ، وذلك لتسهيل العمران دون نفقة .

وكانت الزاوية بمثابة استراحة للقوافل ومركز تجارى ومركز اجتماعى ومحكمة ومصرف وبيت الضيافة وملجأ للفقراء ومدرسة للقرآن وحرم آمن ومدام وساحة للتدريب اليومي على الرماية وإطلاق النار .

وتجرى المسابقات وتعطى الجوائز لأمهر الرماة .

وكان حفر الآبار وبناء الصهاريج واستصلاح الأرض البور واجب كل زاوية في المكان الذي تقام فيه .

وكان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصا عندهم للشغل بالأيدي . فيتركون الدروس في ذلك اليوم ويستغلون بالتجارة والحداة وغزل الصوف وفلح الأرض ، لا تجهد منهم إلا من يكد ويكدح وعلى رأسهم الشيخ السنوسى نفسه .

ولكل زاوية رئيس هو شيخ الزاوية ، ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيخ القبائل وأعيان المنطقة .

ومن شيوخ الزوايا جميعهم يتألف مجلس أعلى يرأسه السنوسى .

وهو نوع من التنظيم الهرمى في أسفله قاعدة من الأتباع والمريدين . يلهم إلى أعلى شيوخ القبائل ثم شيوخ الزوايا ثم الشيخ السنوسى .

وجتمع المجلس الأعلى للنظر في سير الحركة مرة كل سنة .

وبعد النظام من برقة مركزاً للدعوة .

ومن برقة اتسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبنى الحارث وبنى حرب كما انتشرت بواسطة الحجاج في اليمن . وبنيت الزوايا في المدينة والطائف والحبراء وينبع وجدة .

كانت السنوسية دولة داخل دولة .

وكان السنوسى يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى وتوحيده بتكافؤ هذه الخلايا حتى تبتلع الأمة العربية في داخل هذا الشكل التنظيمى الجديد من الاشتراكية الإسلامية .

ولكن الاستعمار الإيطالى الزاحف من الشمال والاستعمار الفرنسى الزاحف من الجنوب لم يهمل هذه الحركة حتى تؤق ثمرتها . . وما لبث أن أطبق عليها كلابة الحديد والنار .

وفي لحظة وجدت السنوسية نفسها في موقف الدفاع .

وانطلق الرصاص من عشرات الزوايا في أعماق الصحراء .

يقول دوفرييه إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كتورة محمد بن عبد الله في تلمسان وعصيان محمد بن تكول في الظهراء .

وفي سنة ١٨٩٥ كان علم المقاومة للاستعمار الفرنسى في الجنوب ، في يد

وكان محمد البراني يجمع الجيوش من الطوارق والبدو والبربر لمقاومة الزحف الفرنسى .

وكانت الأموال والأسلحة تتدفق من التلاميذ والمريدين .

وفى خطاب مرسل من أحد تلاميذ السنوسى إلى مدير غدامس التركى يكتب التلميذ :

« وقد وقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانين رجلاً وغنمنا من الخيل كثيراً والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك وبركة شيخنا معنا . »

وكانت من تقاليد الطريقة السنوسية مناولة السبحة والسيف للمريد حينما يتم دراسته . ويكون ذلك بأن يلبسه الشيخ الجرة أو الخرقة ، وبعد أيام يناوله السبحة ويلبسه السياف ويأمره بالصلاة بهذا الزى .

وفى أورده المؤرخ أحمد زاده :

« إنه من الواجب على كل فرد من السنوسية مادام قادراً وغير عاجز أن يكون مستعداً للطوارئ متهيئاً للحرب منتظراً للأمر منفذاً له بكامل طاعته . »

وما يروى أن رشيد باشا التركى أرسل جواسيسه إلى إحدى الزوايا ، وسأل الجاسوس أحد الاخوان ، وهو محمد البكرى . عما إذا كان بالزاوية أسلحة ، فأجاب البكرى نعم لدينا مخازن من الأسلحة ، ثم قاده إلى أحد مخازن الكتب وفتحها له .

وقد استمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين عشر سنوات .

قلت له : كيف تجد الكفاية فى هذه الأعشاب ؟ . .

قال لى : كف يدك عن الأذى ، وطهر لسانك عن الغيبة ، وافتح قلبك للحب يجعل لك الله فى كل عود أخضر من هذه العيدان غذاء كاملاً .

سألته أن يعظنى . .

فنظر إلى فى حياء وغمغم :

قال الله للمسيح : « يا عيسى عظم نفسك فإن اتعظت فعظم الناس وإلا فاستحق منى . » وأنا لم أتعظ بعد لأعظك .

فقلت له : إذن تمنحنى بعض كلمات تكون زادى على الطريق

فقال وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد :

أصرف كل اهتمامك إلى العلم ، فإن الله لا يعبد إلا بالعلم .

لا تشتغل بطلب الدنيا ، فمن يشتغل بطلب الدنيا يتلى فيها بالذل .

إذا خفت الله خاف منك كل شىء .

احذر صحبة النساء اتقاء على إيمان قلبك .

الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس وفراغ العقل وهذا شأن من تراهم على المقامى . . فلا شىء يؤنس به إلا الحضرة الإلهية والخلوة مع الرحمن .

من لازم الناس أصبح محصوراً فى محيطاتهم وفى هيكل ذاته .

من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد دعا إلى معصية .

نقاء السريرة وصفاء القلوب وسلامة النيات ومحبة الخلق والخالق هى رأس العبادة والسعى وراء الشهرة فسادها .

وفي سنة ١٩٠٢ سقطت زاوية بير العلاف في أيدي الجيش الفرنسي الذي هدمها وبني مكانها قلعة حصينة.

وفي سنة ١٩١١ تحولت السنوسية إلى الشمال لمقاومة الاستعمار الإيطالي، واستطاعت أن تقاوم الإيطاليين عشرين سنة.

ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربي استطاع أن يهزم بدو الصحراء.

وفي كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية تحسم المعركة.

حريكة

الرجل

المصالح

أكثر من صحبة الصالحين فإن فيهم الشفعاء .

قلت له :

- ومن هم الصالحون ؟

قال :

- لباسهم ما ستر وطعامهم ما حضر .. أبرار أخفياء ، أتقياء إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا .. تحابوا في روح الله على غير أموال ولا أنساب .. يتعارفون في الله ويحبون في الله ويكرهون في الله . يقول الله عنهم يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي .. اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي .

قلت له : هل لهم وجود في هذه الأيام ؟

قال :

- خلت الديار ، وباد القوم ، وارتحل أرباب السهر ، وبق أهل النوم ، واستبدل الزمان بأكل الشهوات أهل الصوم .. لم يبق إلا أقزام مهازيل حثالة كحثة الشعر أمثالنا لا يبالي الله بهم .

قلت له : ما رأيك في أهل هذا الزمان ؟

قال في حسرة :

- اعترفوا بأفقه وتركوا أمره ، وقرءوا القرآن ولم يعملوا به وقالوا نحب الرسول ولم يتبعوا سنته ، وقالوا نحب الجنة وتركوا طريقها ، وقالوا نكره النار وتسابقوا إليها ، وقالوا إبليس لنا عدو وأطاعوه ، ودفنوا أمواتهم ولم يعتبروا بهم ، واشتغلوا بعبوب إخوانهم ونسوا عيوبهم ، وجمعوا المال ونسوا الحساب ، وبنوا القصور ونسوا القبور .

هو رجل مغربي منقطع للعبادة في جبل .

لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه ..

هو عبد الله في أرض الله .

يلبس بردا من الصوف ويجلس على الأرض بغير فراش ويتوسد الحجر ... وما رأيت معه إلا بعض كتب مخطوطة .. وما رأيت ضاحكاً .. وما رأيت رافعاً بصره في طريق .

يكسب حياته من غزل الصوف .

ولا يأكل إلا بضغ ثمرات فإذا ارتحل فأعشاب الطريق زاده .. وهو مورد الوجه يفيض صحة وإشراقا .

لقد كنا في زماننا نحلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بها .

وأتم جاءكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فإذا فعلتم ؟

ولم أجد كلمة أجيبه بها .

أما هو فراح يبكى ويغمغم بين دموعه .

والله لولا عباد ركن وصيبة رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا .

وحينما تركته كان قد بدأ ينشد :

وشمس على المعنى مطالع أفقها
فغربها فينا ومشرقها منا

وحينما كانت نغيات أنشاده تذوب في الهواء كانت ذاكرتي تعود بي إلى لقاء
بالمتصوف الهندي براهما وأجيسوارا الذى رويت حديثه في كتابي الخروج من
التأبوت .. ولا أدري لماذا أحسست أنى أمام نفس الرجل ..

كان كلاهما يقول كلاما واحدا ، ويتكلم نفس اللغة وكأنما يجلسان على مائدة
واحدة ويقرآن من نفس الكتاب .

وتذكرت حديثي مع المتصوف المغربي عبد العزيز بن عبد الله وكيف كان
يقول لى إن التصوف الهندي هو الذى أخذ منا ولم نأخذ منه وإن تجار بابل
وفارس وعلماها كانوا ينقلون دياناتنا الشرقية إلى الهند من أيام إبراهيم الخليل
بدليل دخول الكلمات العربية في الكلمات السنسكريتية :

سوترا .. الصورة

جو .. هو

متنا .. من أنت

بوداتا .. ذات بودا

احسين .. احسان

اسرافا .. اسراف

ماهايانا .. معاينة

كارما .. كرامة

نيرافانا .. نور الفنا .

لقد كنا نعطي دائما .

ولقد أخذ منا الكل .

واحتوت دياناتنا على الحق كله .

والتصوف الإسلامى احتوى بين دفتيه على كل الطرائق بما فيها البوذية
واليوجا .

كنت أسير مستغرقاً في التفكير

وكان انشاد الفقير المغربي ما زال يرن في أذنى :

وشمس على المعنى مطالع أفقها
فغربها فينا ومشرقها منا

نعم .. إن الشمس تغرب فينا الآن ..

فتى يكون مشرقها منا ؟ ..